

ابراهيم الكوني

الوقائع المفقودة
من سيرة المجوس



ونصوص
أخرى
الزينة
الكجيرية

هذا النص هو فضُّ لتاريخ الصحراء من خلال الكشف عن أساطيرها ورموزها وأحجارها المسكونة بروح الأسلاف وتعاويذهم وتماثمهم.

وهو استعادة لخبرات روحية قام بها أهل الصحراء الناثقون إلى الحرية والباحثون عن الله والحقيقة والسكينة بحيث يندفعون - أو تدفعهم الأقدار - في معاناة وجودية خلف مُثُل لا يمكن تحقيقها في الواقع، وهم يعيشون هذا التوتر بين الحلم والواقع، بين المثال والوجود كضريبة لا مفرُّ منها يدفعها الكائن البشري ثمناً لوجوده في العالم.

تحضر هنا الشخصيات التي سبق أن تعرّفنا عليها في «ملحمة المجوس» مطالبة مبدعها إنطاقها والتعبير عن هواجسها وتجاربها وخبراتها الخفية المندسة في خفايا الروح والذاكرة: الزعيم «آده» الذي حمل وزر الزعامة وعاش متردداً بين عقيدة التخلي ومسؤولياته عن أهل القبيلة؛ «تافاوت» الأنثى التي كتب عليها القدر إنقاذ سلالة القبيلة من غول العدم، المعماري «آخموك» باني «واو» الحجرية لتكون على مثال الفردوس المفقود. أما ما يتخلل العمل بأسره فهو روح «الدرويش» الذي اجتثَّ عضلة الإثم ليحرر نفسه من التردد بين رغبات الجسد وصفاء القلب ليكتشف أن الحل الوحيد هو في الفناء.

ولعلَّ استعادة أساطير أهل الصحراء، وتحليل تشكّلها في وعي الجماعة، والتبادل بين الأسطوري والواقعي في أصالة مستمرة دائبة بين عالمين يتوحّدان في عالم واحد هو ما يمنح أدب إبراهيم الكوني سموه وطابعه المميّز.

ابراهيم الكوني

الوقائع المفقودة
من سيرة المجوس

(ونصوص اخرى)

الربة
الكجرية

الربة الحجرية

أنيري مكان البدر إن أفل البدر
وقومي مقام الشمس ما استأخر الفجر
ففيك من الشمس المنيرة بنورها
وليس لها عنك المحاجر والشجر

عمر بن أبي ربيعة

* إبراهيم الكوني: الوقائع المفقودة من سيرة المجوس .

* الطبعة الأولى: ١٩٩٢ .

* جميع الحقوق محفوظة .

* الناشر : دار التنوير للطباعة والنشر
تاسيلي للنشر والاعلام

133 Makarios Avenue
Classic House Building-Office No,4
Tel: (357-5) 387463
Fax: (357-5) 387464
Limassol - Cyprus

* المركز الرئيسي :

الضنبرة - أول نزلة اللبان - بناية عماف -

الطابق السابع - تلفون ٨٠٦٣٥٩

ص . ب ٦٤٩٩ - ١١٣ بيروت - لبنان

صفحة من كتاب الصحراء

بعد أن أُصيب الدرويش بالمس، وقبل أن يرفع يداً مجبولة بالقداصة والتصميم ليحتض عضلة الإثم ويتخلص من عرق الشيطان، بعد أن اقتحمت عليه الأميرة قفص السر ليصبح عصفور النور مهزداً بالاختلاس والامتلاك والاستلاب، وقبل أن تنزل المدينة السحرية لتقطع رأس الحياة في الحية المدسوسة أسفل السرة. في هذا البرزخ الواقع بين الـ «ما نعه» والـ «ما قبل»، في هذه المسافة المحصورة بين السهل ووادي الطلح، تقع تادارات. وفي تادارات تقوم القمم الجلييلة التي انفصلت عن السماء ونزلت إلى الأرض ليستظل بها الأسلاف ويتخذوها بيوتاً يسكنون إليها، وجدراً ينحتون عليها رموز الرحلة المجهولة. تحت جدار من هذه الجدران استظل الدرويش بنار القيلولة وهو يلهث وراء «أوداده» ليلبغه وصية الأميرة. تحت هذه الصخرة التي فصلها الزمان عن الجدار المقدس هجع موسى ليشقى بنار أقصى من نار القيلولة، ويداوي الجرح الذي يهتد عصفور النور في قفصه المنيع. تحت الحجر الغامض، القديم، الذي يحفظ سيرة الألهة ويكنم في صدره تاريخ الصحراء، رأى موسى خيال الربة الحجرية لأول مرة. كانت تقف مكابرة في مقامها الخالد. تنظر إلى القمم المواجهة في الأفق البعيد، تروي تجربة أخرى في العشق بنسان السر، بلغة السكون الأبدي الذي لا تعرف الصحراء العظمى لغة سواه. ولا يعرف الدرويش لماذا رأى في قامتها المذبذبة، وحسبها الخفي، ونظرتها السرية، خيال الأميرة «تينيري» برغم محاولات القبلي أن

يقتطع منها نصيبه في غزواته الموسمية . ولم يجد نفسه يتابعها بإصبعه المبلل بدموعه لأنه اكتشف الشَّب، ولكنه احترق وفقد الصواب لأنه اكتشف سرّاً أقسى . إذْ أخبره وجد الحنين أن المخلوق إذا عشق مخلوقاً يرتفع العشوق وابتعد إلى برزخ المحال . يستحيل الوصل بالعشوق لأنه يدخل الحرم ويتواصل في الله . وإذا بلغ العشوق مرتبة الإله انقطع الوصل واستحال غمّلكه . هنا يقوم الخيار المميت : فإمّا أن تخطو إلى الأمام وتملكه فتذوب فيه، تتوحد به ، تتلاشي ، وتنفذ نفسك إلى الأبد فتشرك بالله مخلوقاً أرضياً تعرف أنه لم يكتب الكمال الإلهي ولم يكن أهلاً لأن يعمل عمل الله الموجود في كل زمان وكل مكان وليس كمثلته شيء . وإمّا أن تراجع ، ترجع إلى الوراء ، وترك أهل الباطل يعبدون أولئهم البشرية في النساء ويسلمون هُمن في أجسادهم وأرواحهم ليستبدلوهم بالذي ليس كمثلته شيء .

ولا يعرف لماذا أوحى له الإلهة الميثية في الحجر بالخطر، ووضعته في النقطة التي تتقاطع فيها الطرق . وقد أحسّ بالخطر ورأى غول الظلمات يتوعدده عندما تأمل نظرة الإلهة إلى الأفق البعيد . نظرة تحمل نداءً من الماضي المجهول ، وتنقله إلى الخلف عبر الأجيال .

ولكن مَنْ غير عجائز تادارات ، اللاتي عشن في الكهوف ورضعن حليب الجنّيات ، يستطيع أن يعرف سرّ الربة الحجرية ويسري قصتها للأجيال؟

ومَنْ غير الحجر الصارم ، الصبور ، الخالد ، يستطيع أن يتلقى الأمانة ، ويدافع عن الرمز ، ويحفظ وصايا الأسلاف من غدر الزمان وقساوة القليل؟ مَنْ غير هذه الألواح المكابرة ، الصموتة ، الجامدة ، الخزينة ، وهبت الاحتفاظ بالأسرار : أسرار الآلهة ، وأسرار البشر . فصارت بذلك الصفحات القاسية من كتاب الصحراء؟

هذه الصفحة القاسية ، هذا الحجر المكابر ، لم يبخل على الدرويش في ذلك اليوم ، فحدّثه ، بلسان العجائز الحكيمات ، عن سرّ الآلهة الحجرية .

(١)

استقلّ بها عن أهلها في تاسيلي بعد العرس بثلاثة أشهر ، ونزل بها تادارات كي يلتحق بالراعي ويعتني بالماشية . أخذها من أهلها قبل مرور العام فاستاءت الحياة وقالت له على انفراد :

- هل تظنّنا نحتفظ بالعرس عاماً بعد الزواج إمتثالاً لمشية الأسلاف وحدهم؟ ألا تدري أن الاستقلال بالمرأة قبل مرور اثني عشر شهراً في بيت أمّها يعرّضها لعدوان الجنّ؟

يومها طأطأ رأسه وأجاب الحياة :

- الذنّاب فتكت بثلاث القطيع . والجمال شرّدت إلى صحاري مساك ، وإذا لم تُخل عمتي سبيل مع ابنتها فستجد نفسها تؤوي رجلاً خائباً ، سيجلب لها العار ، لأنه لن يجد ما يفعله إلا أن ينجب لها من ابنتها أولاداً ستضطر أن تعولهم نيابة عنه .

شدّت لحافها حول رأسها قبل أن تقول :

- كما تشاء ، ولكن الاستقلال بعروس قبل مرور الإثني عشر شهراً غاظة كبيرة . للجنّ قوانينهم وعلينا أن نلتزم بالعهد الذي ورثناه عن الأسلاف .

عدّل من وضع عمامته وبحث عن العبارة :

- في قبائل الجن يوجد النبلاء . قابليتهم في تادارات وعرفت منهم نخلفاً كثيراً .

سكنت لحظة . تراجع خطوة لتفسح الطريق لطابور النمل المنهمك في بناء مملكته :

- افعل ما تشاء ، ولكن لا تظن أبداً أنك أقمتني !

(٢)

كاست العروس يتيمة الأب ، وكان هو يتيمة الأم والأب . عاش مع الأم في تادارات السباوية ، متنقلاً بين المغاور والمراعي والمقاطع الحجرية الجبلية . لم يعرف أباً . ولم يتخيل أن مخلوقاً شارك أمه الحياة ليخلق من زوال لولم تحبه الأم ونقص عليه السيرة من نهايتها . قالت إنه سقط من القمة الجبلية وهو يطارد الودان المقدس المسكون بروح الأسلاف . لم تكف بالإنخبار ، ولكنها ما لبثت أن كشفت له سر المطاردة . قالت إنه لم يكن ليرتكب الإثم لو لم يجتنب الماء وتحترق تادارات بالجفاف ثلاثة أعوام متوالية ، وانتهت إلى أنه دفع الثمن لأنه أراد أن ينقذ ذريته من الجوع ، لأن الصحراوي لا يصطاد الودان المقدس إلا إذا أشرف على الانقراض ورأى سلالة مهددة بالفتنة . نال الأب الجزء ولكنه أنقذ النسل من الزوال . ولكن العجوز أومأت إلى أن الحياة ستوقف في تادارات إذا لم تواصل الذرية في الحفيد . لم يفهم يومها الإشارة فأوضحت وهي تتأمل يمينا ويساراً مع شكوة الحليب :

- إذا أردت أن تعرف السر فانظر إلى الماعز . كيف يتكاثر المعز إذا لم يلتق الذكر بالأنثى ؟

أنفى وجهه وراء القناع خجلاً فتقدمت العجوز ومزقت الحجاب عن الحياء :

لماذا عليك أن تحجل عندما يتعلق الحال بالنصر؟ لماذا توارى وجهك إذا

كانت الحياة في تادارات تتعرض لخطر الزوال؟ لو شعر أبوك بالحياء لما جئت إلى الصحراء .

قال بضيق :

- لا حاجة بي لأحد .

فتوقفت عن التهايل لتحتج :

- ماذا أسمع؟ إذا رفض رجل أن يقترن بامرأة تبرأت منه الصحراء . المرأة قذرة الرجل . هذه هي الشريعة الوحيدة التي تعترف بها تادارات ويقرها كل الوطن الصحراوي .

وكي تقطع عليه الطريق إلى الاعتراض كشفت عن خطتها :

- غداً سرحل لزيارة الخال في تاسيلي . سترى أن في بيته تايي أنثى يقول لها رجال العشرة عند غياب البدر : «إكشني عن وجهك يا تامدورت لأننا نريد أن نحلب نوقنا والبدر غاب» فتكشف تامدورت عن وجهها ونضيء لهم ظلمات الليالي الظلماء . فمن يرفض امرأة تضيء الصحراء بوجهها وتناس بجهاها بدر النساء؟

فاض صدره بدفء مجهول ، فاعذ في الغد الجمل استعداداً للسفر .

(٣)

لا ينكر أنه سمعها تتحدث عن إينة الخال في ساعات الفراغ ، ولكنه لم يتوقع أن تنافس «تانس»^(١) أو تحلل بوجهها محل البدر عندما يتغيب عن الصحراء ويتسلل ليبدأ رحلة أخرى في الخفاء . مكثا مع الخال أياماً . إنفتحت معه الأم على تنظيم شعائر الفرح في الربيع . وعادا إلى تادارات لتجميع الإبل والاهتمام بالمواشي . ولكن الأم رحلت قبل أن تشارك في شعائر الربيع .

(١) تانس أو «تانبنت» : إهة الحصب والبهائم عند قدماء الليبيين .

شعرت بوجع مفاجئ في الصدر فعانت من نوبة سعال لم تهلها سوى ثلاثة أيام.

سافرت في رحلة أخرى وتركته وحيداً. توارت في رحلة السر وتركته في رحلة الباطل والشقاء. إلتحقت بالوالد في موكب المجهول وبقي هو ليرعى الماشية وينفذ السلالة من الفناء. نعم. لا شك أنها تركته لحساب. تركته ليتولى تنفيذ الوصية القديمة التي توارثوها عن الأسلاف. الوصية التي تحفظ النسل وتحمي الحياة في تادارات. عليه أن يحرص على تنظيم الشعائر ويفترق بالدر السوي إذا شاء أن ينال رضى الأم ويفوز بمباركة الآباء والأسلاف.

هاجر إلى تاسيلي وكشف للنخال عن رغبته في إقام الطقوس قبل حلول الربيع.

(4)

وجد نفسه في رحلة الأسرار. بدأت الشعائر بالحس في قشع من جلود الحيوانات البرية. إحتجب عن رؤية الحال وأُمّ الصرور وكل من يث له بصلة قرى. بعث الحال بأحد الرعاة فجاء بالرعاة والمهاجرين والعابرين إلى داخل القارة في رحلات القوافل. جاء أهل تاسيلي وجاءت معهم النساء أيضاً. بدان يعقدن حلقات غنائية في حفلات إحداهما نهائية والأخرى ليلية. جاءه رجل مهيب طويل القامة، مدثر باللباس الاحتفالي الأزرق، ليشرف على الاحتجاب. كان صموتاً، غامضاً، ولكنه مولع بالغناء والمواويل الصحراوية الشجنية. الرجل قال إن اسمه «أكّا»، ينتمي بأصول إلى تادارات، ويعيش منذ سنوات متقلّبين المغاور والكهوف ولكن بقية الشباب الذين شاركوا في الشعائر قالوا إنه خنّ، أنجبه أب من أهل تادارات من أمّ جنيّة. ولكن «أكّا» لم يظعن في الانتهاء. بل إبتسم ومال على العريس وكشف له عن

(*) الحنّ: غلوف بين الإنسان والجان.

سرّ جديد. قال له في الليل عندما انصرف الشباب: «سمعتهم يتهامون عن صلة القرى بيني وبين الجنّ». إنهم لا يعلمون أنهم يتمنون جيمعاً إلى أهل الخفاء. فعنى قطع أسلافنا الصلات مع الجنّ أو توقفوا عن التزاوج معهم؟ اعرف امرأة في أمّحار تعاشر جنّاً، وأعرف رجالاً كثيرين في تاسيلي الجنوبية يتخذون من الجنيات زوجات. أردت أن أقول إنى لا أنتمي بصلة القرى لأهل تاسيلي فقط ولكنى على قرابة بك أيضاً من جهة الأم. أنت أيضاً تنتمي إلى الجنّ. قال بوخا: «أمي لم تحدثني بهذه القرابة». ضحك «أكّا» بغموض وأنزل طرف عمامته العلوي على عينيه. أخبر بيّتين: «وهل تستطيع الأم أن تحبرك بكل شيء؟ يكفي أنها أخبرتك بوصية الأسلاف وأقنعتك أن حماية الأصل من الزوال لن يتم إلا بالاتحاد بالأنثى. تلك كانت وصية أهل الخفاء أيضاً». هتف بوخا: «أهل الخفاء؟». أجاب الجنّي المهيب بمرود الجحان: «نعم. تلك وصية الجنّ أيضاً. مصر الإنسان في الصحراء بهمهم أيضاً. أنت لا تعرف أن الارتباط بين القريتين أزنى. إذا اختفى الإنسان من الصحراء زال الجنّ من الخفاء أيضاً». دُهل بوخا. ظلّ يحقّق في وجه الرجل الخفي طويلاً. تراجعت العتمة. ورفع القمر رأساً متردداً خجولاً. تكلم بوخا: «لا أخفي عليك أن هذا مدّش. ظننت أن بينهم وبين الناس خصومة، وزوال أهل الصحراء سوف يسرهم كثيراً». علّق سفير الخفاء: «أنت تخطئ في الظنّ. كل مخلوقات الصحراء تنتمي إلى بعضها بصلة قرابة. بعضنا جاء من سلالة الودّان، وبقايل صحراوية أخرى تنتمي بأصلها إلى الضبّ. وعشائر كثيرة من أهل الخفاء يتمنون بأصولهم إلى الغزلان والضباب. والجنّ يعودون من الظلمات ويتبدّون في أجسام أهل الصحراء ليغنّوا ويعشقوا الأنسيات ويقعوا في الوجد. هل تمعّنت النظر في حلقة النساء أثناء حفل النهار؟ ما ظنّك؟ كمّ حسنة من بينهن تنتمي إلى الجنّ؟». سكّت العريس ثم قال: «الحق أنى رأيت بينهن حسان أصبني بالدّوار. لا يملك أن يتمتع بهذا الحسن إلا الجنيات». قال «أكّا»: «أصب، بينهن ثلاث جنيات.

جمال الجنيّة لا يمحطه البصر. ويرغم ذلك، فإنّ الحُسن ليس قاصراً على الجنيّات». لم يعجب بوخا فواصل أكّا: «برهاني على ذلك تامدورت. تستطيع أن تناقص بحسبها أي جنيّة. ويرغم ذلك فجاءها صحراوي. حسنها أنسي مستمد من جهة الأم». خالف العريس عرف الوقار وهتف بوجلل العشاق: «حقّاً؟». حدّق فيه الشيخ الحفي طويلاً قبل أن يهزّ عمامته الزرقاء علامة الموافقة.

(٥)

قبل أن تبلغ شعاثر الإقتران ذروتها في ليلة التسليم^(٩)، قام القيم على الحجاب وارنكب الخطأ الذي أثار استنكار الشباب وأرجع له أهل القرينة كل البلاء التالي. خالف «أكّا» الغامض شريعة الأسلاف فجرد خباء القرين من الأسلحة وكل الأدوات التي رُشّقت خصيصاً لإفزاز أهل الخفاء وحماية القرين من أذى الجنّ. نزع المدينة المغروسة عند الركيزة لتحصين رأس القرين المحتجب، وأبعد السيف المعلق في المدخل لاعتراض المردة المتسرين بالظلمات.

أنلف صرّة الشّيح التي علّقنها إحدى العجائز في زاوية الخباء سراً. ولا يعرف أحد كيف غافل القرين المسكين وجوّده من تيممة قديمة ورثها عن أمّه محفوظة في قطعة من الفضة موسومة برموز السحرة. اكتشف الشباب أن يده قد إمدنت وأبعدت حتى التعاويذ الخفيّة التي دفتتها العجائز حول الخباء في غايء سرية تحت التراب. اكتشف الشبان المكيدة وشعروا بالخطر. انتظروا حتى انقضى حفل الليل وانصرفت النساء. تجمّعوا وواجهوه بالخطيئة. قام شاب نحيل، يرتدي عمامة رمادية، ادّعى أنه ينتمي للقرينة بصلة قرابة، وواجه أكّا بالاتهام:

(٩) التسليم: تسليم القرينة إلى القرين، أي ليلة الدخلة.

- لم نر، ولم نسمع رقيباً على الحجاب يجرّهُ البيت من كل حصن ليتركه تحت رحمة أهل الخفاء. مهمة الرقيب أن يحمي البيت، ويأتي بالمزيد من الأسلحة، لا أن يجرّده من الحماية ويتركه عارياً، أعزله، عرضة للعدوان. هذه المكيدة. أقسم بالإله «أمناي» أن هذه مكيدة من رجل مشبوه لا يعرف أحد من أين جاء.

قام شاب آخر. قصير القامة، يميل إلى البدانة. أحكم لثامه الباهت حول أنفه وقال:

- يُحسّن بنا أن نعرف هويّة الرقيب على الحجاب قبل أن نرفع في وجهه الاتهام. أحبّ هؤلاء الرجال يا «أكّا» على سؤالي: مَنْ أنت؟ من أين جئت؟ إلى أيّة قبيلة تنتمي؟ مَنْ زكّاك رقيباً على احتجاب القرين؟

هيم صمت. تحملل القمر وبعث بإيماءة في القبس السري. كشف الرقيب الحفي عن سرّه:

- لقد كشفت للقرين عن أصلي. أعيش متنقلاً بين المغاور، وأنتمي بأصلي إلى تادارات وإلى أهل الخفاء أيضاً.

سَرَتْ همهمة بين الجمع. ولكن أكّا واصل بشجاعة:

- نعم. لا أنكر أنّي أنتمي إلى الجن بصلة قرى كما ينتمي لهم القرين، وكما ينتمي إلى هذا الشعب الصحراوي العريق الذي اختار استبدال حياة الخفاء بحياة الصحراء هرباً من أذى الانس، فاعلموا أنكم جميعاً تنتمون للجن بصلات قرى.

ساد الصمت. ماتت التساؤلات وأيقن الجميع أنّ «أكّا» الغامض جنّي حقيقي. لم ينطق أحدٌ باعتراض، فواصل الجنيّ:

- نسأؤكم أيضاً تنتمي إلى الجنّ. لقد رأيت منهن في حفل الليلة سح نساء. وأكثركم يعاشر الجنيّات دون أن يعلم أنّه مقترن بجنيّة. كما ترون فإن

الصلات بينكم وبين أهل الخفاء لم تنقطع منذ تزوجوا واختلطوا مع الأسلاف في الزمن الأول.

سكت لحظة ثم أكمل المفاجأة:

- اعترف لكم أنني أبعدت الأسلحة من الخفاء وجردت الخفاء من التسائم نزولاً عند رغبة أهل الخفاء. إنهم يريدون أن يشاركوا في الشعائر بسلام، ولا أخفي عنكم أيضاً أنني نزلت عند رغبتهم بعد أن أخذت من زعيمهم الجليل تعهداً بإبعاد المردة والأشرار. ألا يرضيكم تعهد زعيمهم الجليل؟

سكت الجمع. هب الشاب النحيل:

- أنا لا أثق في زعيم الجن. كلنا يعلم أن الجان يتنكر في مسوح الزعامة والجلال وهو يبيت الأذى.

احتج أكأ وحذر بصوت خفي:

- من أساء الظن بالجن لحقوه بالأذى.

إعترض الشاب:

- لا أستطيع أن أثق بهم. لقد جرحوا والدي على الصخور وضربوه على رأسه حتى مات. وأنا لا أسيء الظن الآن بسبب النار القديم، ولكن أحذر من أخطار تجريد القرنين من السلاح. هذا فال سيجر اللعنة. شريعة الأسلاف علمتنا ألا نتجرد من السلاح أبداً. القرنين في خطر ما ظل أعزل. القرنين في خطر فاشهدوا يا شباب الصحراء على مكيدة سليل الجن!

لم يستجب «أكأ» للاستفزاز. عقب ببرود يليق بخس يتمي إلى أهل الخفاء بصلة قرابة:

- لو لم استبعد التعاويذ وقطع الحديد لما استمتعتم اليوم بغناء الالهة.

استنكر الشاب النحيل:

- غناء الالهة؟

- أجل، أجل الماويل التي سمعتموها منذ قليل رددتها حناجر جيئات خرجن من ظلمة الخفاء.

ردد أكثر من صوت:

- عجيب. هذا يصعب على التصديق. يعجز رأسي المربوط باللائم عن الفهم.

حسم القرنين النزاع. اعتدل في جلسته المهيبة فوق العرش الترابي الجليل وتكلم لأول مرة:

- عليكم أن تنصتوا. لقد أصاب جاهلن رأسي بالصداع، وعرفتني بذاكرة تنسب إلى أسلافهن بقرابة من جهة الأم.

سكت الجمع. اكتمل ميلاد الكوكب الفضي وعمر الخفاء بفيض من الغموض.

(٦)

اجمع الشبان أن وقوع «أكأ» في الليل التي سبقت التسليم كان الخطأ الثاني الذي عرض حياة القرنين للخطر. فتركه بدون حماية وغاب في الرحلة الوجدانية الخفية إلى الأصول. سقط مصروعاً عندما غنت حسناء مجهولة (أكد الدهاء أنها تنسب إلى أهل الخفاء) لحناً مستعاراً من غناء الريح في أفواه المغاور. تدرج على الأرض مسافة طويلة. ثم شرع يرتجف ويتنفض كحيوان ذبيح. هرع الشباب ويحذرون مدية يفكون بها قيد الأسير المكبل بسلاسل الجن. ولكن الشاب النحيل اعترض سيولهم وحاججهم:

- ألم يقل هذا المشبوه أنه أخذ عهداً من سكان الخفاء بآلاً يتدخلوا

(*) أجزل. الجذب. الرجذ. الوقوع في حالة وجدانية.

لإفساد شعاثرنا؟ أَلَمْ يَجْرِدَ القرنين من أسلحة الحديد ومفعول التنايم معتمداً على العهد المزعوم؟ اتركوه لئرى كيف سيعامله الأقرباء الذين أحسن بهم الظن، اتركوا الجني في قبضة الجنّ!

تركوه في قبضة الجنّ يوماً وليلة. ولكن أهل الخفاء لم يفوا بالوعد فتخلّوا عنه ليجد نفسه وحيداً، اعزل، في يد حفنة شقيّة من مَرَدّة الظلمات.

تدافع الشباب وغادوا يحمون حرم القرنين ويحيطون البيت بالسبوف والسكاكين ومئات السحرة. دفعوا بالشاب النحيل ليتوثى مراسم تلقين القرنين بأسرار التسليم وخفايا الرحلة. ارتدى اللباس الأزرق، ثبت على عمامته قيمة مجرّبة ورثها أباً عن جدّ. وضع مديّة موسومة برموز سحرية مدوّنة بلغة «الموساء»، وذهب ليختلي بـ «بوخا» ليعلمه أسرار الخروج والعشق والميلاد. دخل على القرنين فوجده يعتلي عرشه الترابي بجوار الركيزة. أخرج المديّة من كمّه وغرسها في التراب. ترعب في المواجهة وبدأ الطقوس السحرية باللغة السرية:

- إخرُج!

- إلى أين؟

- إلى الريح. إلى الفراغ. إلى السحاب. إلى التراب. تتلاشى في القبلي. وتقطع معه الفراغ الصحراوي. يعترضك السحاب. تتململ في قطرة المطر. تهوي معها إلى أسفل. تعود إلى التراب. تحتضنك الأرض. تهددك. تدلّك. تخرجك من أحشائها جنيّاً في المهّد. فنمُغُ أيّ المخلوق المكابر، لأنك ستنزّل إلى أسفل الأعماق مهما صعدت إلى أبعد السماوات.

انحنى «بوخا» وعقر جبينه بالتراب.

وأصل الرقيب الجديد على الحجاب يقرأ رموز الوصية الوثنية القديمة:

- أنت الآن وليد. أنت الآن مخلوق. أرقى أنك مخلوق!

فمايل العريس يميناً ويساراً كالمنجذوب فواصل الرقيب الجديد:

- إزحف على صدر الأم أيها المخلوق الوليد.

نزل «بوخا» من عرشه الترابي المهيب، وزحف على ركبتيه حتى بلغ زاوية الخباء كي يقدّم البرهان أنه مخلوق قد اكتمل في الوليد.

لَقِّن رقيب الحجاب:

- الآن ينكشف سرّ وينفصل كوز الطين عن جسد الأم.

نهض «بوخا» ووقف على قدميه.

أغمض الرقيب عينيه. رتل بصوت فاجع:

- تبدأ المسيرة الطويلة. الضياع. الضياع. ليس أمامك أيّ المخلوق سوى طريق واحد هو: الضياع!

تحرك القرنين. تسكّع حول نفسه كالمجنون. أوقفه الرقيب بإشارة يده. وأصل قراءة الوصايا:

- لا يخرج المخلوق من متاهة الضياع إلا إذا عثر على لسوح النطين الضائع. فتشّ عن أثارك، ففي حضنها تجد الخلاص.

عاد القرنين إلى الأرض. ترعب واستسلم لجلسة الوقار. تابع رجل الحجاب قراءة النص:

- تأتي الأنتى من تاسيلي، ويأتي الرجل من تادارات. تلتقي أنتى أنجبته الأرض الصحراوية بذكر أنجبته الأرض الصحراوية. يتحد كوز الطين بكوز الطين ويذهبان ليجتمعا في الأصل. من الاجتماع يولد النسل ويتواصل الأصل.

ثمّدّ بوخا على سريره الترابي الجليل. صلّب يديه على صدره وحَبَس الأنفاس.

اتخذ وضع الأموات.

أثما الرقيب فنهض وخرج من حجاب الحياء. لَوْح للجمع بيده مشيراً إلى أن رحلة قد انتهت ورحلة أخرى قد بدأت.

زغردت النساء. غُثت الشاعرة أبيات البشارة:

«ابتهجي يا صحراء، فإن تادارات سوف تلتقي بتاسيلي فتمطر الساء».

(٧)

لم يتم فك أسر «آثا» من قيود الحجر إلا ليلة المهرجان. فقد غُثت الصبايا الأناشيد الجنائزية الصحراوية لا إرواء المجدوب من الظلم المجهول، ولكن احتفالاً بالقرآن الذي سيُعقد بين طينين: طين تاسيلي، وطين تادارات. أقبل الفرسان ورقصوا على المهاري، وتجمع الصبيان ورقصوا بقلوبهم حزناً على اغترابهم الأبلدي وخروجهم القديم من «واو». ويُقال إن الشجن الذي يعصف بالنبلاء الصحراويين ويدفعهم إلى الوجد والسقوط مستعار من هذا الاغتراب القديري الذي لم يعرف حتى الحكماء متى بدأ وعجز العرافون أن يعرفوا متى ينتهي.

في الساحة الفسيحة الفاصلة بين حلقتي الرجال والنساء المغنيات تقاطع المهاري أزواجاً وأرباعاً في سعيهم المكابر بين مشرق الشمس ومغربها، كأنهم يعدون سيرة الحياة من الميلاد حتى المات في هذا الانسجام المكور، الخالد، الصبور. ينطلق فارسان مهيبان من جهة المشرق، يتحركان ببطء، وثقة، وكبرياء، نحو الجهة المعاكسة. في نفس اللحظة يبدأ فارسان من الكوكبة المقابلة في الغرب مسيرتهما الغامضة، ليتقابل (رسلُ الشروق والغروب) في القلب حيث تتجمع المغنيات في حلقة تمجد الاقتران بأناشيد شجنية حزينة، وترفع إلى هامة الفرسان المدثرين بالزرق والجلال سؤالاً فاجعاً: «بماذا جئنا يا فارسا المشرق؟» فتجيب الحوريات على لسان المغنيات: «بالحياة». وعن السؤال الموجه لفارسي المغرب: «بماذا أتينا يا فارسا المغرب؟» تجيب الجنيت بلسان الجنيات: «بالتزوال والمات». يمين الاكتئاب، وبرغم ذلك تولول

السن الصبايا بالزغاريد العاتية فترقص قلوب المهاري وتبهج قلوب الفرسان.

ظُل «آثا» يجوب ويترنح بجوار المغنيات. يجمل على رجله اليميني، ثم يعود فيدرج على اليسرى. انفكَّت ربطة عمامته مراراً فتطوُّع الشباب وعقدوها على رأسه. ثم سقط على الأرض. تدرج طويلاً قبل أن يهدأ ويهدم ويتخذ وضع الأموات أيضاً.

كان ذلك علامة الارتواء وإيماء بالعودة من رحلته السرية إلى المجهول. حل الغسق.

بدأ خروج المهاري من السهل. تقاطعوا أزواجاً في المركز، وأعطوا الإشارة بحلول لحظة الدواع الأبلدي. سيمضي رسول الغروب إلى الشرق حاملاً سؤاله الفاجع عن سرِّ الحياة والميلاد. ويمضي فارس الشروق إلى الغرب حاملاً سؤاله الفاجع عن سرِّ المات والتزوال.

(٨)

انتهت شعائر الدواع وبدأت شعائر التسليم.

خَرَجَت النسوة بالقرينة مع حلول العتمة. بدأت مسيرة الميلاد والغموض والأسرار. طواف ينطلق من المجهول ويمضي إلى المجهول ليصنع في طريقه نسلاً يضمّن استمرار لغز اسمه الحياة. طواف يبدأ من خباء الأم وينتهي في خباء القرن، ولكنه يستوعب في هذه المسافة الصغيرة مسافة أخرى بدأت في الأزل وتستمر إلى الأبد، واختصرت رحلة خالدة ظلت مجهولة في الزمان وفي المكان. مسيرة مقدسة لولاها لما وجد زمان ولا حدث مكان.

تسكعت النسوة بخطى جنائزي، يتلفنن بالأردية السوداء، ويرتلن نغمة محبوسة ورثها عن جدّاتهن الجنيات:

بفضول، وشاءت أن تشرف، من بعيد، على القرآن الذي سيستعطف السماء
ويأتيها بالخصب عندما ستنتهي مراسم لقائها الموعود بـ«تادارات».

كأن يشدون بعض المقاطع ويرددها حتى يصل النداء المرتل، الموروث،
الفاجع، إلى القمم ليسمعه الأسلاف المهاجرون في مقابرهم المستديرة على
سفوح المرتفعات. وقد انقسمت الأصوات إلى فرقتين متحاورتين. تلوّت
شاعرة القبيلة الصوت الآخر ونصبت نفسها رسولة مفوّضة من القرينة، في
حين انحازت كوكبة الصبايا وقمن بالردود الشعرية على لسان القرنين. ترنل
الشاعرة بروح الجنّيات:

- تكيكين تكيرارس

تكي يس كيس، توياس

وتزغشم انكتحاس

ونرزي إيفسان دغلاس

ونقرين قمارت إيتيس

وتزيف يتغريت اينغاس

فتترنم الصبايا بلسان القرنين ويغنّين الترتيل الجنائزي الموجه:

- تاغالنتم نوار أوانا

تينمروضونت آيتام

فتشترط الشاعرة:

- ورّيع ابني انفودان

نسّوف اينل نساكان

أنا آيتكن السّودن.

تستمر المحاوراة الشعرية. ويتقدم الموكب خطوات أخرى، حتى يقف
أخيراً عند أعتاب الخباء. تتوقف الالتهالات. تبدأ المفاوضات.

تجمّعت النسوة في المدخل. تفرّص القرنين على عرشه الترابي المفروش

بكلمية تواتية. في أسفل العرش، ترنّع الوصي على الاحتجاب. تكلمت
الشاعرة بلغة التورية والمجاز:

- ها نحن، الصبايا، نصل أخيراً وبنا ظمأ!

ساد الصمت. في الخارج تجمهر الشبان والصبيان وشرعوا يتصنّتون.
انتظرت القبيلة جواب الحرم المحتجب منذ أيام في محراب الخباء. ولكن
الحرم لم يجب بكلمة المحراب فعلاً. في تجمّع الصبايا همس. علا نشيج
القرينة أيضاً.

اضطّرت الشاعرة أن تلوّح بالإشارة من جديد:

- ها نحن، الصبايا، نصل أخيراً وبنا ظمأ.

مال الوصي على رأس القرنين ونمّس في أذنه بالسّر. إبتعد «باخي»
وتكلّم القرنين بالجواب:

- مَنْ وَصَلَ وبه ظمأ فليرتو!

تنقّست الشاعرة بارتياح. رفعت صية عقيرتها بزغودة حماسية مفاجئة،
في حين بكت القرينة بين أيديهن بصوت مسموع. استعارت الشاعرة لغة
الجنّيات لتواصل مباراة الأحاجي القديمة:

- ها نحن، الصبايا، نصل وبنا جوع!

نطق العرش هذه المرّة بالجواب دون تلقين من «باخي»:

- مَنْ وَصَلَ وبه جوع فليشبع!

زغردت الصبية وارتفع بكاء القرينة.

أخرج «باخي» جراباً جلدياً من زاوية الخباء. تناول منه ألبسة زرقاء
ونعلاً جلدية تسفوح بروائح العطر والعباغ المستعملة في نقش التهانم على
الجلود. قدّم العطية للشاعرة. تفحصتها بعناية. ثم بدأت في ترانيل جنائزية

جديدة. توقفت. اقتربت مراسم السيرة القديمة من الاكتمال. جاءت بالقرينة وسلمتها في يد القرنين يدًا بيد، لتبدأ سيرة أخرى.

(٩)

كشفت له «تامدورت» عن وجهها الذي يناص بدر السماء فأضاءت ظلمات الحرم. غاب في الجسد الليلي الشهي، قَلَمٌ يسمع كيف استمر تشيخ آفة الليل يجرح الليل الصحراوي البكر، تنفيذاً لمشية الأسلاف، وفزعاً من مجاهل الولادة الجديدة.

(١٠)

أخلى سبيل الأسيرة عندما شقَّ القبس الفجري الأفق وأعطى الإشارة الخفية التي توقف العشق، وتفصل جسد السماء عن جسد الصحراء. خارج الحرم تلامعت نجمة الصبح فأيقن أنه تقيد بالوصية الشعرية.

ذهبت القرينة لبيت أهلها وذهب هو ليقضي حاجته. عبر المسافة العارية المؤدية إلى الوديان. استنشق هواء الفجر وتمتع بالخلاء المكشوف. أحس بنفسه خفيفاً مثل الصوف، مثل هبة ربح. خرج من حُبْسِ الحرم وكسر قيد شعائره استمرت سبعة أيام. فكيف لا يشعر أنه ولد الآن، لأول مرة، كيف لا يحس السعادة من استولى على إلهة صحراوية تضيء الظلمات بوجهها المندور؟ كيف لا يحس بأنه خلُق من جديد من بدأ رحلة جديدة كي يضع بذرة مقدسة بها ينقذ الأصل من الانقراض ويبعث في الصحراء الحياة؟ كيف لا يفرح وقد استجاب لنداء الأم ونقذ لها وصية الأسلاف؟

نزل الرابية المؤدية إلى الوادي. هناك فقط اكتشف أنه يمشي بدون سلاح. تحسَّن كمَّه فوجد أنه نسي المديّة في الخباء. انقلبت سعادته إلى شقاء في لحظة. تذكر تحذيرات «بانخي» وقفز إلى رأسه موروث هائل من الخرافات التي تحدثت كيف يروق للجن أن تبطش بالقرنين قبل أن يتم أسبوع الحرم.

لا شيء يعادل فرح أهل إخفاء إذا اختلوا بالقرنين خارج المحراب بدون رفقة من وصي، أو سلاح من حديد أو قطعة من نحاس. توقّع الأذى واستعدّ لتلقي الضربات. تحيّل له أن الصحراء كلها تهتده بالانتقام. القمم الجبلية البعيدة تحولت إلى غيلان بشعة تتوعد بالشر. في تلك اللحظة سمع حجارة تندرج وحركة وراء شجرة الطلح. تهيأ لشجار منع سكان الظلمات، ولكنه أبصر شيخ رجل يرتدي ثاماً معتماً ويربط نكة السروال بعد أن قضى حاجته أيضاً. ظل شعر جلده يقف كالشوك، ولكن الشيخ لم يبدأ العدوان. اقترب خطوات فتحرك الرجل نحوه. تقدّم نحوه أيضاً. كور قبضته واستنفر عضلاته. في النقطة التي كان يجب أن تشهد المشاة بين رجل الأنس وموارد الجن حدثت مفاجأة قلبت شهوة السراك إلى دهشة. فقد اكتشف بوخا أن الشيخ الخفي لم يكن جنيّاً مبعوثاً من أهل إخفاء، ولكنه الخال! نعم. الخال. فأني فاله سيري في الرحلة التي لم تبدأ؟ أي لعنة سقطت على رأسه قبل أن يتحرك في مسيرة غامضة ظن منذ قليل أنها صراط السعادة والخلود؟ أي مصيبة خصّه بها القدر؟ نعم. القدر استبدل الجن بما هو أسوأ من الجن. القدر ساق الخال في طريقه بعد أن خرج من المخدع. من الحرم. بعد لحظات من انفصال جسد السماء عن جسد الصحراء. بعد لحظات من انفصاله عن جسد نطفة الخال. أنفاسها ما زالت في أنفاسه. رضاها ما زال في رضاها. حرارة جسدها ما زالت تسري في جسده. فكيف ستتقيم الصحراء؟ ماذا نخشى السماء في هذه الإشارة؟

أشاح بوجهه وعاد على عقبه. ركض حتى دخل الحجاب، واحتسى بالحرم.

(١١)

جاءه بانخي. حدّثه بما حدث. انشغل بإشعال النار. تربّع لإعداد الشاي. قال:

- ها هو الجزء قد بدأ. استهنت بوصايا الأسلاف، وسلمت أمرك

لمخلوق مجهول تبين أنه من أهل الخفاء. جردك من السيوف والحدديد وتركك تحت رحمة سكّان الظلمات. الخطأ الأوّل في التنازل عن السلاح. ويبدو أنك استحسنّت الأمر فخرجت من الحجاب بلا مديّة. أنت قابلت الخال لأنك تجرّدت من المديّة.

نتمم بوخا:

- أين أكّا؟ أريد أن أراه.

أجب الوصي ببرود:

- لقد اختفى.

- اختفى؟

- ارتوى واختفى. لقد اختفى بعد أن إرتوى بساعات.

- أين يمكن أن يختفى؟

حدّجه باخي باستنكار:

- ألم يزعم أنّه على صلة قرابة بالجنّ؟ الخفاء هو وطنه الأصلي.

- وطنه؟

- الخفاء هو وطن الجنّ الوحيد. لا أشك في أنه عاد إلى الظلمات بعد أن

حقق الغاية التي جاء من أجلها!

انتقل الاستنكار إلى القرين:

- أية غاية؟

بدأ باخي يخلط الشاي. غمغم بغموض:

- إذا خرج لك الخال وأنت محبوس في الحرّم فهل بطمع الشرير أن يحقق

غاية أشرّ؟

نتمم بوخا بعد تردّد:

- أردت أن أراه.

اعترض باخي:

- مجسّن ألاّ تراه أبداً. ظهوره كان سبب النحس.

بدأ الشباب يصون. خلّعوا نعالهم بعيداً ودخلوا الحرّم حفاة الأقدام. صافحوا القرين أولاً، ثم الوصي، ثم تربعوا بوقار في المدخل.

وصلت أول كوكبة من الصبايا أيضاً، يحملن الطبول الجلدية والآلة الموسيقية ذات الوتر الوحيد. بعد قليل توجّع الوتر الحزين بحجرة من الوتر الساوي الوحيد فتدقّق النغم يروي فجيعته التيه المصحراوي الأبدني.

- بدأ أول حفل غنائي بعد التسليم.

(١٢)

ترك الحسنة في بيت أهلها وعاد إلى الموشاي في «تادارات». تشتت الإبل، وفكت الذئاب بقطيع الماعز الذي تركه تحت إشراف أحد الرعاة. أهله الراعي فضّل وتوغّل في السديان البعيدة. اختلت به الذئاب وفكت بنصفه. جمع الأغنام وجدّ في أثر الإبل. أدرك بعض الجمال في «مسالك صطفت». واصل المسيرة حتى «مسالك ملت» فعثر على عدد من النوق، ولكنه لم يستطع أن يلمّ شمل كل القطيع. عاد إلى تاسيلي وفتح أهل القرينة بالانفصال. بعث أحد المهاجرين ليحسّ النبط ويقنع الخال. ولكنه وجد أن المهاجر نفسه يحتاج إلى إقناع. مكث يوماً وليلة يحاججه ويحدّثه عن قساوة الصحراء وضرورة الاستقلال بأمراته حتى يبني بيته ويصنع حياته. في النهاية قال إنه لا يرى الخلاص إلّا في الاستقلال، وإذا لم يتنازل له الأهل عن إبتهم فسوف يملأ لهم البيت بالأحفاد الذين لن يجدوا من يعولهم، لأن الذئاب سوف تفتك بالماشية، والجذّذب سيقتضي على الإبل. قبل المهاجر إبلاغ الخال، ولكنه لم يقنع. عاد بعد يومين وأخبره أن الخال يرى أن قدر المرأة أن تتبع رجلها حالاً، ولكن عليه أن يقنع أم الفتاة بنفسه إذا أراد أن يقترف عملاً يخالف تعاليم الأسلاف. ويبدو أن الخال بذلّ جهداً عظيماً في سبيل إقناع الحماة، إذ وجد السبيل أمامه معهداً، ولم ينفق جهداً بطولياً في سبيل إقناعها.

في «تادارات» طلع له من العراء.

خرج بحثاً عن الإبل في الوديان الجبلية فخرج له «أكّا» من الأرض الحمراء كأنه انفصل عن حجارها الصلصالية الدامية. يتنعل مَداساً جلدياً باندلاً. مَقْنَعٌ بِلثامٍ بانسٍ إِمْتَصَّتْ منه الشمس لونه ووسمته بالعمّة والزوال. استبدل الثوب الأزرق ببغضطن باهت نالت منه الشمس أيضاً. وقف تحت كتلة جبلية جلييلة وراقبه وهو يقطع الوادي، المفروش بسجاد من الحجارة المحروقة بنيران البراكين، ويصعد نحو الكتلة الصخرية. تركه حتى اقترب. لم ينطق بكلمة. لم يأتَ بحركة. لم يوميء له بإشارة. وعندما رفع بوخا نظره، وميّر المخلوق الأدمي عن اللحمة الحجرية الدامية، وتوقّف وتنبّأ لتلقي صفة الجرن، أو باطاً ليمتدّع الذهشة والقشعريرة، لم يتسم «أكّا»، ولم يسدّل طرف اللثام العلوي ليخفي عينيه.

استعاد بوخا رجولته وتاور بالسؤال:

- هل أنت إنس أم جان؟

أجاب «أكّا» بلا تردد كأنه انتظر هذا السؤال:

- وهل يوجد بين هذين المخلوقين فرق في تادارات؟

ترافقا في جولة حول الصوامع الحرفاية التي تتلاحم وتتناق، ثم تنفصل وتتباعد في وديان تتلوى وتتمدّد إلى الصحاري الجنوبية المجهولة. عندما تتقارب رؤوس الأبنية الإلهية لتلتقي الوديان السفلية تبدور موز الأولين وخطوطهم واضحة عن لحمه الصلصال العريق. تبدو الأشكال البشرية والحيوانية المحفورة في لحمه الصخور عميقة ومهيبة كأنها تتهيّئ للانفصال عن جسد الصلصال والنزول إلى الوديان وممارسة الحياة، في حين تبدو المخلوقات الأخرى المرسومة على لحمه الحجر بـ «تافتست»^(*) والألوان الأخرى، كتيبة،

(*) تافتست: نوع من المعز الأحمر. استعمله فنوننا قبل التاريخ في رسومهم على حجارة الصحراء الكبرى.

حزينة، تستهين بالزمان، ولكنّها تحتمي بالحجر وتتحصّن بالصلصال خوفاً من حياة لن تأمن فيها غدر الزمان. فانقسم رُسُل الأسلاف إلى فريقين: الفريق المنقوش في جسد الصخر يتوتّب توقاً للبعث، وشوقاً للحياة، في حين يوحى سلوك الفريق المرسوم بالوان الأرض، بدم الصحراء، بالزهد والاعتزال.

تكلّم بوخا:

- حيرني اختفاؤك. لقد بحثت عنك بعد تحرّرك من الأسر.

توقّف «أكّا» بجوار صخرة هائلة. مربعة الأضلاع.

قطعة من جبل. تدحرجت من علٍّ واستقرّت في صدر الوادي. انفصلت عن القمة السهباية إثر زلزال أرضي، أو صاعقة إلهية. كانت موسومة من الجهات الأربع برسوم الأسلاف ورموزهم وصوابهم. وقد احتلّ الجانب المطلّ على الأرض المكشوفة كهنة وحساباً بانداء خرافية. كان الرُسُل من الفريق المحفور الذي يتحرّق شوقاً للتحرر من أسر الزمان والتاريخ، والانطلاق في الوادي البكر لممارسة شعائر الصيد والعشق والغناء وترتيل صلوات الامتنان للالهة.

وقف «أكّا» يتأمل كاهناً مهيباً، يضع على رأسه قناعاً من جلد مجهول، ويلوح في الهواء بسلام كأنه رمح. تأمله طويلاً. تبادل معه حديثاً غامضاً بلغة الجرن السرية. ثم التفت وخرج من حَرَم الأسلاف ليجيب بوخا عن سؤاله الذنبوي:

- أردت أن أراك أيضاً لأحدثك بما رأيته في السرحلة، ولكن بانخي

منعني.

- حقاً؟

- ما يدري السلطان إذا تربّع على العرش كيف يتصرّف الأوصياء مع

الرعايا؟

سكت بوخا لحظة. دَحْرَجَ حجارة مسكونة بسرّ الأسلاف، ثم قال:

- أرى أنك تبحث لي عن المبررات، فهل غفرت لي؟

- مَنْ لم يغفر لم يذق طعماً للسعادة أو سكينه.

- هذه لغة الحكماء وزعماء القبائل، فهل لفتك حكماؤُ الجنّ الحكمة؟

- مَنْ يستطيع أن يلقن الحكمة غير الجنّ؟

- أنت لم تحدّثني برحلتك. حدّثني عن رحلة الوجد، والأسر. ماذا رأيت،

في الرحلة؟ كيف تحمّلت القيد والأسر؟

- أُمّ تقع في الوجد يوماً؟

- هزّ بوخا رأسه بالنفي. دحرج حجراً آخر وأجاب:

- لست من أهل الوجد. لست من أهل السرّ.

- علّق أكّا:

- لا أستطيع أن أصلّق. تنتسب بقراءة للجن ولا تدخل في أهل اسرّ؟

- لم أنعم بجنّة السرّ. ربما لأن عرق الإنس في دمي غلب.

- هلّل أكّا للاعتراف:

- نعم. في دمك يغلب عرق الإنس. هذا هو السر. لقد فهمت ذلك

عندما شئت أن أتولّى شعائر الاحتجاب.

- لم أتحيز لأي طرف. لقد تركتكما للقدر.

- لو لم تقف في صفّه لما استولى على رقيبتك واغتصب منّي الوصاية.

- لم أفعل ذلك إلّا بعد وقوعك في الأسر. لماذا ذهبت في الرحلة المجهولة

وتركتني بدون حماية؟ ألا تدري أنك عرضت حياتي للخطر؟

- الخطر في إعادة السيوف والحديد إلى الحَرَم. في إعادة السلاح وقع

نقض العهد وبطل ميثاق أخذه أهل الخفاء على أنفسهم.

- باخعي يؤكّد العكس. قال إن تجريد الحَرَم من السلاح كان الخطأ

الأول. ولولا هذا الخطأ لما بدأت أحداث الشؤم؟

- توقّف أكّا وسأل باهتياماً:

- الشؤم؟

- نعم. لقد خرجت لقضاء الحاجة في فجر اليوم الأوّل للتسليم فخرج

لي الخال وتقابلنا وجهاً لوجه.

- قال أكّا بنموض:

- عرفت أن ذلك سيحدث.

- باخعي أكّد أن اللقّاء لم يكن ليتمّ لو لم أتحجّد من السلاح.

- سكّت أكّا طويلاً. انحرف الوادي شرقاً وبدأ عنقه يضيق بالصخور التي

دفعتها الآلهة لإيقاف تدفّق السيول. قال أكّا:

- هناك شؤم آخر حجبه عنك باخعي.

- لم ينتظر أكّا فأكمل:

- القرينة لم تهرب ليلة التسليم.

- توقّف بوخا. في عينيه رأى آك بريفاً خفياً. واصل المسير وضرب

حجارة بالعصا. عمّ السكون الصحراوي. أنصتت القمم السايوية.

- تلاقت أنفاس المخلوقات القيمة على جدران الحجارة. همهم حكماؤُ الجنّ

وانتظروا الجواب. تكلم الرفيق قبل أن ينطق القرين.

- هذا أسوأ كثيراً من خروج الخال في العراء. وربما كان لقاء الخال سبباً

للخلل الأوّل.

- نطق بوخا باحتيار:

- لم تحدّثني أحد بما حدث. لماذا لم تخبرني باخعي بذلك؟

- أنا لم أملك أبداً أن استيلاء باخعي على أمور الحَرَم كان مكيدة.

- مكيدة من أهل الصحواء أم من أهل الخفاء؟

- من أهل الصحراء يقيناً. لا يتقن المكائد مثل الإنس.

- هيمن صمت طويل. توسّل بوخا:

- لم تحدثني عن الرحلة. حدثني عن الأسرار

عاد الأسلاف ينصتون في الحجارة. استرق الجن السمع في الكهوف
العليب. وبدل أن يتحدث أكأ عن رحلته الخفية إلى أرض المجهول، رفع
صوته بنواح شعري فاجع:
الدُّونيا تجرازاغ غندا
تأقيمد توتيت أنتهجا
دوؤوف أنسيضن أوغول ايلله*).

رددت الكتل الحجرية النداء الغنائي الفاجع. وازدهت المخلوقات
المرسومة حزناً، في حين نزلت من عيون الحسان المحفورة دموع حارة.

ثم تحدث أكأ عن الأسر بنفس الروح الفاجعة:

- شقي مَنْ لم ينعم بالسفر إلى الزمان الأوّل. مسكين مَنْ حُرم من اجتياز
الصحراء، والعبور إلى مملكة الخفاء. بائس وضائع وخاسر مَنْ بقي في حدود
البلد رهيناً، ورضي بحدود الصحراء معقلاً، ولم يجرب أن يخرج إلى السرّ في
الخفاء. لأن الخلود ليس في الصحراء، ولكنه حكر على الخفاء. فالخفاء وحده
يملك السرّ الأوّل.

قاطعه بورخا بلهفة المخلوق التوّاق لمعرفة المجهول:

- من رأيت الأجداد؟ خبّرني عن الأجداد؟

ولكن أكأ الماخوذ مضى يسرد رواية أخرى:

- رأيت أرضاً محفورة بالوديان. في الوديان يجري الماء. السيول في الوديان
تأتي من المجهول وتغضي إلى المجهول. تقعقع السماء بالرعود فيتمزّق حجاب
السحب ويكشف الظلمات عن وجوه الآلهة. في السهول الممدودة ترتفع

(*) ما أن رأفت لنا الحياة حتى أشرقت على الفناء.

وما تبقى من أيام لا يبق بغير اشوية

والمنسحة والرجوع إلى الرب

قامات الحقول. في الحقول يرتع الودّان والغزال والجاموس. رأيت الإنس
أيضاً يحومون فوق المرتفعات، ويتحايلون لاصطياد الودّان الجبلي النيبيل.
رأيت سحرة يحفرون صورة إله المرتفعات على الصخور المساء. ينقشون
الخيال الإلهي الجليل ويهيمون بالتيمية السحرية: «أوداد. أوداد.
أوداد»(*). يحطّون الاسم ويصبونه في الشكل، في الرسم، بد «فتفتت» بالدم
المستعار من بطن الأرض الحمراء. وعندما تكتمل العلامة وينتهي الساحر من
النقش، يقبل الودّان. يقترب من التجمّع ويذهب للدخول في النقش، في
الاسم، ويقع في الفخ. يحيط به الصيادون لياكلوا من لحمه المقدّس.
يتقاسمون الغذاء الإلهي، ثم يرقصون ويكون ثلاثة أيام. نعم. لا بدّ أن
يكونا ثلاثة أيام حتى يستطيعوا أن يستندرجوا إلهاً جديداً إلى الفخ. ولكن
الحكماء يتجنّبون أن يسوّوا الودّان بالاسم. إنهم يستدعون بلقبه المهيّب:
«أمغار»(**)، وإذا تأخر عن المجيء ناحوا بأصوات فاجعة: «أمغار تعال
إلينا. لا تترك أبناءك جوعى. لا تترك أبناءك للضباع. أمغار. أمغار. تعال.
اقترّب. سوف نفرح بمجيئك ونسكن معك في الحجر. انظر، لقد أعدنا لك
بجوارنا مأوى. سوف تسكن مع أبنائك حجر الكهف إلى الأبد». هذه لغة
الذّعاة الذين يقتنون التورية والتخاطب بالإشارة.

سكت أكأ، ولكنه ظلّ يرتحف. في عينيه لمع جنون الوجد.

(١٤)

أكأ قبل العرض.

إقترح بورخا أن يساعده في الرعي لقاء خمس معزات وجمل واحد في كل
حول. ولكن تاملت مرضت وأصابها الصداع منذ تطلّقت منه النظرة
الأولى. اعترضت على استخدامه وقالت لقرينها:

(*) أوداد: الودّان

(**) أمغار: المعوز الأب: الجدّ. زعيم القبيلة. كبير القوم.

- عَيْنُ هذا المخلوق ليست ككل العيون. لقد أصابني الصداق عندما وقعت عينه على وجهي .

ولكن بروحا لم يلتفت للاعتراض، كما استهان بدور العين في إصابة الرأس بالوجع. تماثلت الحسنة للشفاء وخرجت يوماً وراء قطع الماعز. في المرعى خرج لها أكأ من الأرض كما خرج لقريتها في الوديان جبلية. قفز قلبها من صدرها فزعا فابتسم لها. تحرك نحوها خطوات فرات في عينيه ما لم تره في عيني مخلوق. ابتعد وصعد الرابية المقروشة ببساط من الحصى. اختفى كما ظهر كأنه جن. عادت تامذورت إلى الخباء وقد أصابها الدوار والحمى. هجعت بجوار الركيزة ولكنها لم تشعر بتحسّن.. في المساء ساء الحال وبدأت تنقبأ. عاد القرين فأخفت عنه ظهور الراعي. أعد لها قدراً من الشيح المخلوط بالبانيونج البري. دهن جبينها بزيوت مستحضرة من الأدغال ووحوشه. نزع من جسدها العرق وتراجعت احتفى. همست في أذن القرين قبل أن يأخذها النوم:

- مَنْ نَظَرَ إِلَى وَجْهِكَ أَكَلْ قِطْعَةً مِنْ لَحْمِكَ!

(١٥)

حدثته عن قدرة أشرار الصحراء في اختلاس حياة البشر، وسلب الدم من وجوههم بالنظر. رَوَتْ له نقلاً عن أمها كيف غافلت جارة شريرة جذبها من أمها وشربت منها الدم. كانت الجارة ساحرة جاءت من «كانو» هرباً من المجاعة التي عانت منها الأدغال في ذلك الزمان. أقامت معهم في تاسيلي، وتنقلت مع قريتها في صحاري «أزجير». كانت خلّاسية ماردة، ولكن القدر حرّمها من الذرية. وكان القرين يعبرها بالعقم ويصفها بأنها أرض جدياء عندما يتشاجران. يتنازبان بالألقاب دوماً ويتلعنان بلغة «الهوسا». وقد اضطرت الجدة أن تتدخل مراراً لفصّ الشجار، وتوسّطت بينهما دائماً لمصالحتهم. ولم تدِرْ أن مصالحة زوجين متخاصمين مغالقة لوصايا الكتاب

المفقود. فوجدت الجارة تبرع إليها ذات يوم حاسرة الرأس، شعنا، جدائل شعرها الأكثر معقّرة بحبيبات الرمل. وقطع الدوّع والأصداق النهرية تتدلى من الجدائل البثسة. وبرغم أن النار كانت تشتعل في عينيهَا الحمراوين إلا أنها لم تتحلّ عن مضغ اللبان. قالت له أن الأم حدثتها كثيراً عن عشق هذه المرأة للبان. تقايضه من تجار القوافل بالبتير، ولا تكفّ عن مضغه حتى وهي نائمة. ولم يعرف حتى قريتها سرّ هذا العشق. ولكن الجدة لم تتيقن أن في العادة سرّاً له علاقة بالسحر إلا فيما بعد. أمّا في ذلك اليوم، فإن دخول هذه الجنيّة إلى الخباء وهي تلهي بمضغ اللبان طمأن الجدة وقالت لنفسها أن هيئتها الجنونية لن تكون إلا ثورة عابرة من ثورات زنجج اهُوسا، لأن «أنبي» الضائع يقول إن الزنجي لن يكون زنجياً حقيقياً إذا لم تتبّهِ حالات اجنّون.

ولكن حسن النية خذل الجدة. فوجدت المرأة تنقف فوق رأسها وترطن «بالهوسا»، ثم تتناول حفنة من الرمل وتصبّها على رأس الجدة. وقبل أن تنصرف هددها بسبايتها وحذرتها قائلة بلغة ركيكة أنها ستقتلها في المرة القادمة. دُهِلَتْ الجدة وساءت الجارات عن السبب فقيل لها أن الغيرة هي التي سمّمت بدن الماردة الخلاسية، فظنّت أن الجدة تخطط في الخفاء للاستيلاء على زوجها. كانت الجدة أرملة. مات زوجها (الجد من جهة الأم) بمكيدة سرّية إسمها «ضربة المخلب»، ولم ينجب من الأبناء سوى الأم. بقيت أجدة مع أهلها، وتقلت معهم في بحثهم عن العشب في مراعي أزجر. استسلمت للمصير الإلهي ونست الاقتران وسيرة الرجال طوال السنوات الماضية. وعندما فسّرت لها الجارات سبب ثورة الجارة الخلاسية لم تستنكر التهمة الظالمة لبشاعتها فقط، ولكن لأنها أحييت جوحاً قد اندمل، وأيقظت خاطراً أليماً قد دفنته مع القرين الذي مات بتلك المكيدة الفاسجة التي لا تُنسى. اشتعل صدرها بالحقق وسمّم دمها الإحساس بالظلم، فخرجت في نفس العثية ودخلت على الجارة الخلاسية فوجدتها تمضغ اللبان وتداعب القرين كأن شيئاً بينهما لم يحدث، كأن خصامهما الصباحي كان مزحة طفولية. إزداد الحقد

وأعياها الغضب. ففزت فوقها وداسَتْ بركبتها على نحرها. عجزت المرأة الشريرة أن تخلص نفسها وعجز قريتها أن ينزعها من رقة القرينة فخرجوا واستنجدوا بالجيران. هَرَعَ الحلق وتكاثروا على الجدة المستميتة فوق جسد الجارة. ولم يخلصها من الموت إلا جَمْع من الرجال.

ظَلَّت عينا الجارة جاحظتين والزبد يعلو شفيتها حتى ظنَّ الجميع أنَّها ماتت. بقيت ملقاة على ظهرها، مغنى عليها، حتى ظهر اليوم التالي.

مضت شهور على هذه لمشجرة الميتة. رَقَّ قلب السماء وسقطت أسطر في الوديان الجبلية الشرقية. إنتقل النَّجْمُ إلى المراعي وفرحت العشائر بالربيع. نَسَبَ الجدة ما حَدَّثَتْ، وخافت وصايا الكتاب المفقود مرةً أخرى عندما ظنَّت أن أهل الهوسا يمكن أن ينسوا الإساءة.

دَسَّت الساحرة الشريرة الانتقام في السرِّ. انتظرت حتى اختلت بها في المرعى. فجاءتها بعيون تشتعل بالإحمرار والجنون ووقفت فوق رأسها دون أن تتوقف عن مضغ لبنائها الكريه. ابتمت بخبث الساحرات وسلطت على وجهها النظر وشرَّعت تمصُّ الدم من عروقه. تزلزل رأس الجدة بالدوار، وأحاط بها الأشباح والمردة. حاولت أن تمكث إلى التائم، ولكنها عجزت عن النطق وتقدَّ الجن لسانها وأطرافها. عجزت حتى عن ذكر إسم الإله «مناي». بعد قليل بدأ أهل الظلمات يضربون الأرض بأقدامهم فَمَازَتْ الصحراء ورأت بعينها كيف تركض بها الأرض وتتبع عن القطعان. إختفت القطعان وابتعدت عن الرعاة والحلق، فانفردت بها الجنية الخلاسية وألَّبت عليها الجن. رأت كيف تحدَّق الساحرة في وجهها لتسرق منه الدم والحياة. كانت تبتم وتلوك اللبان. شجبت الجدة وهربت منها الحياة. في النهاية استطاعت أن تصرخ. بعد الصرخة تحورت بدنها اليمنى، فأخذت حفنة التراب ورمتها في وجه الجنية. ترُّبَّت وغلظت عينيها الوحشتين بيديها. فاستطاعت الجدة أن تهرب وتحتمي بالرعاة. كانت شاحبة، هزيلة، معصومة الوجنتين، هرب

الدم من وجهها وأكلت الماردة الشريرة اللحم من جسمها. ماتت بعد ثلاثة أيام.

(١٦)

في ليلة أخرى تحدَّثَتْ «تامدورت» عن حكمة القناع.

قالت إن القدماء اتخذوا اللثام حجاباً كي ينعوا الأغراب الأشرار من أكل وجوههم بالنظر، لأن القناع حصَّن البدن ضد العين الشريرة. وقد تعلَّموا هذه الحيلة الصحراوية الحكيمة بعد تجارب فاجعة مع قبائل الأدغال. ويروى أن أهل «كانو» لم يعرفوا، في الزمان القديم، سلاحاً آخر غير العين، يدافعون بها عن أنفسهم، ويبدون القبائل المعادية. ولكنهم تبادوا مع الزمن وأصبحوا يغزون الصحراء وينهبون البيوت ويبدون القبائل الشمالية مُسلَّحين بعيونهم الوحشية. ولم يمتدَّ الصحراويون للقناع إلا بعد أن أشرَفوا على الفناء. استطاعوا أن يجمعوا صفوفهم ويطاردوا العيون المعادية ويطهروا الصحراء من سحرهم. ولكن السَّحرة عادوا إلى الصحراء بحيلة أخرى. فكأنوا يقتلون بالتائم المجوسية كل إنسي يتدوَّن إلى اسمه. ولم يكتشف الصحراويون سرَّ التسمية القاتلة إلا بعد جهاد طويل. فأخفوا أسماهم الحقيقية وتنادوا بالألقاب المستعارة. أبطلوا مفعول هذا السحر أيضاً، ولكن السحرة العتاة لم يستسلموا. فعادوا لغزو الصحراء بالضربة القبيحة المسماة «المخبب».

هذه الضربة الكريهة أصيب جدُّ «تامدورت» من جهة الأم.

رَوَّبت المصيبة نقلاً عن الأم أيضاً.

قالت إنه كان صحراوياً حقيقياً يرتحل الشعر، يعني الألمان السلفية الحزينة، ويعشق الصبايا كما يليق بالفارس. وكان يسرج جملة ويسري ليلاً في

سفر طويل إلى التجويع المجاورة ليارس (Yars)، مع العشوقات الفاتنات من القبائل الأخرى، ويُقال إنه اختى، في إحدى هذه الجسولات الغرامية، بفتاة خلاسية طلبها شاب ينتمي إلى تينكتو، ولكنه يقن استعمال الضرب بهـالمخبـبـ المخيف، فستضافه على العشاء ودس له خمسة أظافر بشرية في الطعام. فأصابه المخلب في الكلية. وما أن غادر الجدد نجع الغريم وعاد إلى القبيلة حتى صرغته، الأوجاع الشيطانية. أوجاع لم تقدر كل حيل العجائز الصحراوية في تهدئتها أو التخفيف من وحشيتها. فقد فيه الأهل الأمل، ولكن القدر جاء إلى القبيلة بقافلة عابرة يرافقها حكيم عليم بأسرار سحر الأدغال. أُخْرِجَ من جرابه حجراً من النطرون. أذابه في قدرٍ من الماء وسقاه للمريض. سهر فوق رأسه عدّة ليلٍ وهو يسقي مياه النطرون. وما أن هاجته نوبة القيء حتى قذّف معه أول غلب بشري. وظلّ يتقيّ غلباً آدمياً بشعاً كل يوم إلى أن بلغ العدد خمسة مغالب. هنا كتبت النجاة للمريض وقال المهاجر أنّ مهمته قد انتهت.

بدأت القبيلة تتحوّط وتعامل الأظافر بارتياح وقداسة منذ ذلك اليوم. فإذا نَزَعَ الإنسان أظفاره تُخفاها عن الأنظار، وذهب ليدفنها بعيداً مخافة أن تتعدّ إليها أيدي السحرة وتستعملها في صنع «المخلب» الكريه.

(١٧)

هَامَ «آكا» في المراعي. تنقّل في الصحاري. عبر الوديان وصعد إلى العراء الموحش في «مسك صطفت». إعتزل هناك أياماً. ولا يعلم عمّا إذا كان الملاك هو الذي نَزَلَ من السماوات، أم أن الوحي الغامض جاء من صخور «متخندوش» المزققة بالإشارات السريّة. ولكنه وجد نفسه يعبر الأرض المحروقة بيران الشمس وحمم البراكين، وينزل إلى الناحية الأخرى. تفقّد

(*) أوزنه. خلوة العائش مع المشوكة (حسب عادة الطوارق)

الإبل قبل أن يُشرع في تنفيذ الخلق. ذهب إلى المغارة المقدّسة. كانت عالية الجدران، مخطوطة بالرموز أيضاً. بشرة الصلصال بلون اللحم، بلون الدم. بلون البشر. بشرتها تناسب اللون البشري. المغارة المقدّسة استعارت لون بشرتها من لون البشر. إختار حجراً صلباً وبدأ العمل. صَقَلَ مساحة مناسبة من الجدار. ثم جاء بحجارة وصعد فوقها لينحت النقش من أعلى. ظلّ يجرح البشرة الحجرية الدامية ويتلو التاليم الوثنية التي تعلّمها من مغاطبات القبلي في أفواه الكهوف، واقتبسها من ثرثرات الجنّ في القمم والظلمات. استجابت الجلدة الحجرية للتاليم السريّة فاستسلمت لمدايعات الحجر. أُفْرِغَ الجسد الحجري الضئيل من اللحم الميت وهباً مكاناً للحم البشري، للحم الإلهي الذي أوحى له الألهة أن يبنه في الجدار الصخري المقدّس. تقصّصاً الحجر ونبتاً لإحتضان الجسد الخالد. فبعد عمل جنوبي استمرّ عدّة أسابيع تبدّلت الملامح الأولية لمخلوق نافس البدر في بهائه، وأضاء الظلمات بنور وجهه، وبهر الصحراء بجسمه، ووقعت قلوب الرعاة في أسره إلى الأبد. وحتى الجدار المقدس لم يُخفّ سعادته بإحتواء جسد الربة، لأنه يعرف أنه سيزداد قداسة بهذا الإتملاك، وسيغور بامتياز جديد سيجعل منه معبداً خالداً في كل القارة الصحراوية.

وسوف لن ينسى «آكا» إلى الأبد الطاعة والمرونة والاستجابة والترحيب الذي تلقاه من الحجر المقدس بمجرد أن بدأ في تنفيذ الوحي الإلهي. وقد سمع الحجر يقول له همس خفي أن الضياح كُتِبَ على كل شيء في الصحراء ما لم يخفر في الحجر. وقد فهم فيما بعد أن هذه وصية من الأسلاف لأنه وجد نصّاً منقوشاً به «التيفيناغ» يعيد نفس الحكمة.

تحلّى الحجر بالتجاوب الحميم مسدداً «آكا» في تجسيم الربة، وبدأ أن المغارة تنهتاً لإحتواء الجسد المشووق. ولم يشكّ أبداً أن روح الأسلاف تستنفر الألهة وتستطفها، لتعطي «تأمودورت» الحياة، وتبارك لها ميلاداً في الحجر.

في اليوم الثالث أشفق عليه القَرين من التوسلات، فقال لقريته الفتاة:

- إخرجني له ولو مرة.

ولكن «تامدّورت» التي جرّبت العين، وعرفت قدرة الخلق على امتصاص الدم بالنظر، وورثت عن أمها المصير الفاجع الذي لَقَّته جدتها بضربة شريرة من العين، أبَّت أن تخرج إلى العراء لتضيء للساحر العاشق الصحراء ليحلب النوق.

قالت:

- سيضرب رأسي الصداغ. سيصيبني الوجع. سأحترق بالحصى. لقد جرّبت فيما مضى. وقعت عينه على وجهي مرتين فصرعني في المرّتين.

سكت القرين وواصل الساحر شكواه الليلية. واصل البكاء كل ليلة. يدور حول الحياء ويردد: «إكشفي يا تانس عن وجهك، وأضيئي الصحراء كي أحلب النوق». ولكن تانس لم تخرج. لأنها تعلم أن الحياة تُعطى مرة واحدة، فإذا أخذتها العين إلى مكان آخر، فإنها لن تعود إلى نفس المكان أبداً.

توسّل القرين:

- إخرجني له ولو مرة واحدة.

فجاوبت بالوعيد.

- إذا خرجت فلن أعود. إذا خَرَجَت المرأة وكشفت وجهها للساحر الذي يتقن استعمال العين فإنها لن تعود.

استمرّ المدّنه يطوف حول الحياء. يردد التوسلات الفاجعة ويغيّي المواويل الحزينة. يترنّل البكايات القديمة ويغالب الحزن بأصوات يقلّد فيها نغاء الماعز. انقطر قلب القرين فتوسّل المخلوقة المنية:

بدأ المرحلة الثانية من وحيه السري:

ذهب وبحث عن دم التكوين. دم الأسلاف المسفوح في بطن الصحراء. ثميمة الأرض الوحيدة التي تملك أن تُحْيى وأن تُمَيّت. تُحْيى إذا لانت وتَبَدّت، وأُقْبِلت. ومَيّت إذا احتجبت. إنها سرّ الحياة. سرّ الأرض. سرّ الصحراء الذي أودعته فيها الآلهة منذ الزمن الأول فلم يبتد إليه ويكشف عنه الغموض سوى الأسلاف. تيفست. تيفست. تيفست. أين أنت؟ أين الدم المقدس الذي يجري في عروق الأرض؟ أين التربة المحضبة بأنفاس الآلهة التي تحرسها روح الأسلاف؟ أين التعويذة التي تأخذ الأحياء إذا غابت وتعيد الأموات إذا أقبلت؟ فإخرجني يا «تيفست» من نخبك في الظلمات وساعدي في بعث الحياة في الكائن الإلهي الذي بَارَكْتَ الألفه دخوله إلى المَحْرَاب؟ تَبْدِي يا روح الأرض وانفخي في الصورة من روح دمك لأن الآلهة أَجْمَعَتْ أن تقبل الصورة وترفعها إلى مرتبة الأرباب. تبدي. تبدي. تبدي.

في الوادي، عند حضيض الجبل، عثر في قبر قديم على كنز فريد من التراب المقدس.

في المرحلة الثالثة جاء إلى الحياء.

طاف حول البيت. ظلّ يحوم ثلاث ليال حول الحياء ويصبح مستعظفاً: «إكشفي عن وجهك يا «تانس»، وأضيئي الصحراء كي أحلب النوق»^(١).

ولكن تانس لم تخرج من مأواها في الأساطير. تانس لم تخرج لأنها تحب الحياة وتخاف من العين.

(١) المدّاه ستعار من أسطورة الطوارق الملحمية «تانس».

- إذا لم تخرجي للراعي فسوف يموت. إني أسمع الأشجان التي تسبق الموت.

فقلت المخلوقة المكابرة:

- إذا خرجت فلن أعود.

إجنهد القرين:

- كشفَ خاطفٌ لوجه لن يصيبك بسوء. لأنَّ لمرأة في الصحراء لا بدُّ أن تخرج إلى الحلاء يوماً.

كَمَمَتِ المرأة الخفية غيظها على البُعَل. لم تقلْ له أنه باعها. لم تذكر له أنه تنازل عنها للراعي الشقي. الراعي الذي لا يعرف أحدَ غَيْرِها ما يحمله في صدره من أسرار. لأن المرأة هي المخلوق الوحيد الذي يستطيع أن يعرف السرَّ في تَوَسَّلات الرجال، وفي تبجيل لرجال. عرفت أنها إذ خرجت فسوف يفقدها إلى الأبد. عرفت أن الراعي الشقي سوف يأخذها بالعين، سيأخذها إلى الأبد، إذا خرجت إليه مرَّة واحدة.

أخيراً خرجت.

وقفت في عراء الظلمات. وأنصتت لسكون الأزل في ليل الصحراء الخالدة، ورفعت عن وجهها الحجاب. إنبتق فيض الضوء الذي ستعان نوره من الأقمار والشموس والكواكب، وانسكب على الصحراء الملقوفة في الظلمة. مرَّق عنها اللحاف الأسود فتبدَّى جسد الصحراء وتعرَّى. زغردت الجنائت في القمم. وناحت الحوريات في الفراديس. ولكن الراعي لم يتَّرع ليحلب النوق.

سجد على الأرض أمام القائمة المعبودة. قَبْل الأرض ومرَّغ جبهته طويلاً في التراب.

خطف المخلوقة الإهيَّة، وطار بها إلى المغارة المقدسة. عجن دم الأرض، كنز الأسلاف، تعويذة الحياة، بروث الماعز وقطع الجِلِّ، وأضاف إلى الخليط حليب النوق. إعتل الحجارة وبدأ شعائر الخلق. بدأ بالقمة، بالرأس، بالحاجبين، بالعينين، بالشفتين، بالوجنتين. ثم الأنف، والأطراف. وكان حريصاً أن ينطق بالكلمة الخفية، ويلقن الحجر السرَّ. ردَّد مع كل علامة حفرها في الجدار بالمخلوق الدموي: «تامذورت. تامذورت. تامذورت». ولكن الوحي السساوي أخبره باللغة السرية أن الجهر بالاسم لا يكفي لاستدعاء المخلوق واستضافته على الحجر. هنا ردَّد شعيرة أخرى: «تعال. تعالي. تعالي». طَبَعَ بعض الملامح بدم التكوين السحري وواصل القراءة السرية: «اسكني الحرم. اسكني الحرم». تفقَّد جسد الرَبَّة بنظرة شاملة. في عينيه كَلَمَ الرضا والوجد وتعبير آخر مجهول.

واصل النقش مكرراً نفس التعاويز الغامضة. رُسِّل الأسلاف. توسَّطوا مع المغارة وعقدوا له محاورة مع الحجر. فهم أن الجدار لن يتقبَّل العطية وينفخ فيها من روح الخلود ما لم يستمر في التفوُّه بالسر. ما لم يواصل ترديد التسمية. ولم يكن يعرف قيمة أخرى غير «تامذورت» لتجسيم الكائن وقوله ضيفاً في حَرَمِ الألهة. لم يكن يحفظ سرّاً آخر غير النداء العاشق «تعال» يصلح لإستدعاء الرَبَّة ولم يكن يتقن لفظة أخرى أقوى من الأمر الإلهي الذي لقنته له الساء وأودعته في شفتيه: «اسكني» لينوي به ويستدرج للسكن في الحرم: «اسكني». فكان يردد التالوث المقدس (تامذورت، تعالي، اسكني) بلا توقف، ويغرس أصبعه في المزيج السري ويقم في الحجر الحميم بَدَناً يستعيره من أرض الصحراء ليرفعه بالعشق وقوة الخلق إلى الساء.

واصل عمله المبدع، الممتع، العسير، ولم يسترح إلا في اليوم السابع.

من البيت ليلة التسليم. عرفت أن شيئاً فاجعاً في طريقه إلى حياتي قبل أن تفرغي العجايز وتنبأ لي بالمصير. فلنلت جيداً واحذر العين. تحبب الولائم فهي شرك الأعداء، حتى لا يلدسوا لك الأظافر ويقتلوك بـ«المخلب» الكريه. وداعاً».

شهقت، واختفى الدم من وجهها، ومن جسدها. شحيت، وذُبلت، وبردت. خرجت إلى الظلمات فراح «بوخا» وخرج يبحث عنها في الكهوف. وقبل أن يبتدي إلى المغارة السرية إغترضه رسول القدر.

(٢٣)

كان يرتدي أسماً رثّة. يتزمل بلثام مرقّع. يلف جسمه النحيل بفغطان باهت سرت أشعة الشمس بياضه. قال إنه مهاجر أقبل من «كانو» في طريقه إلى الحيادة البعيدة. أناخ جله الهزيل تحت الطلحة وتلهّى بتحضير الشاي. اعتدل في جلسته. أحكم لثامه حول وجنتيه وعدّد أسباب اللعنة الثلاثة وهو يترنح كالمصاب بوجد الغناء: «ترفض القرينة الحرب ليلة التسليم وتقبل عليك فتقبلها في الحرم؟ تخرج من الحجاب بدون سلاح وتريد ألا يخرج لك الخال من عتمة الفجر؟ تأخذ القرينة من أهلها قبل مضي الإثني عشر شهراً وتستكر أن يستعيدها منك القدر ليهيأ للجن؟». ففز بوخا وسأل بلهفة العشاق: «هل وهبا القدر للجن حقاً؟». ترنح المهاجر مرة أخرى قبل أن يجيب: «أين يذهب الصحراوي عندما يهجر شكوة الطين؟ هل يعود إلى الصحراء قبل أن يصبح جنّاً؟». ناح بوخا: «لقد بحثت عنها في الكهوف وسألت عنها الرعاة. لم أجدها في أي مكان، ولم يرها الرعاة». تمايل القدر المتكرّر في ثياب المهاجر وعلّق على النواح: «ومنى تبتدي الجن للصحراوي دون أن يصيبه الفزع الميت؟ أعلم أن الإنسي إذا رأى جنياً يموت». اعترض بوخا: «وهل يموت بالرؤية من يمت بقرابة لأهل الخفاء؟». ابتسم القدر المتكرّر في ثياب المهاجر، بغموض الأقدار وقال: «لقد نسيت. كل المخلوقات الصحراوية تمّت إلى بعضها بصلة قرابة».

قضى يوماً يتسكّع في الوديان المفروشة بالرممل والشجيرات اسبرية الظمأى. عاد إلى المخبأ وتفنّد لمخاض في المغارة. حبّس اللوح الحجري الجليل بالسر وحمل في أحشائه الجنين. استجاب للنداء وتقبّل البذرة في صلبه. ازدادت ملامح الوليد وضوحاً وتبدّت خطوط الوجه المدهش الذي يضيء الصحراء إذا تبتدى وخرج من الحجاب. في المقتلحين وقصّ القبس الخلفي وتطلّع إلى الأفق البعيد. الأنف ارتفع وعاند وكابر. الشفتان ارتسمتا وبتمسما بغنج لا يليق بربة الحجارة، وكشفتا، في انفراجة الإغراء، عن أسنان تنافس النجوم وتقيم البرهان على إتياء حواء إلى الساء. إعلت الحجارة واقترب من البدن. رأى كيف يجري فيه البعث ويكتسب الحياة. لفحته الأنفاس الحارة، وأحسّ بديب الدماء في عروق الجسد. تمسّس الأطراف فوجدتها حمية، تبتض بالحرارة والجمال والحياة. وضع أذنه على القرب فسمع الوجيب الذي ينطق، في إيقاعه الرتيب، بالعشق والحمّد. ارتجف ابداع واحتضن المشوقة فغاب في رحلة وجدية أطول وأجمل من رحلته الأولى التي أخذ فيها السر من الأسلاف. وعندما عاد إلى الصحراء ووجد نفسه في «تادرات» سقط على وجهه وركع في سجدة طويلة أمام المعبودة. كان خالفاً سجد لمخلوق ابتدعه واستحق أن يُعبّد.

(٢٢)

قبل أن تتحالف النساء مع الصحراء في تادرات وتسمح للساحر أن يبدع سرّه كانت «تامدورت» في الخباء تحضر. أصابها الشحوب بعد الخروج، وغاب الدم من البدن. بدأت تنقبّ وتنث وترتل مفردات الوداع مع القرنين طوال الليل. إحتضنته وناحت قائلة: «وداعاً يا ابن العمّة لأنك فقدتني وأن لم أعد لك. قلت لك أن الأنثى إذا خرجت للكاهن الديلي لتتبرّ له الخلاء وقعت في الأسر ولن تعود إلى الورا أبداً. وداعاً يا ابن العمّة، لأن القدر هو الذي شاء أن تفرق منذ خالفت الوصايا المقدّسة ورفضت أن أهرب

في الصباح اختفى ككل المهاجرين العابرين . نهض بوخا في الفجر فلم يجد له أي أثر . لم يجد أثراً لموقد النار، ولا لشاي البارحة . كأن اللقاء كان حلماً . أيقن بوخا أن المهاجر ما هو إلا جني تنكر في ثياب عابر سبيل .

(٢٤)

يروى الرعاة كيف تخلّى آكّا عن الرعي، وتفرّغ لمعشوقته الحجرية . يمحّث في عمق المغارة، يداعبها ويمازحها ويسلّيها . وكثيراً ما سمعوا ضحكات آكّا مع تلك الجنينة الخفية التي أكّد البعض أنهم شاهدوها مُعلّقة في الجدار الحجري مثل ربّة حقيقية .

قيل أيضاً أنه أنجب منها ولداً وبتاً . يتبديان في ثياب البشر، كما يروق لهما أن يتخفيا في لباس الظلمات والخفاء أو يتنكرا في جلود الحيات أو أجساد الحيوانات .

أجمع الرعاة أن الطفلين أشقى مخلوقين عرفتهما تادرات في تاريخها الطويل .

العهن المسموم

موسكو

١٩٩١/٩/٢م

(١)

في هجوم الليلة الثانية سلط عليه القدر، ذلك الخصم المجهول، مارداً من الجن.

تدقّ الأعداء في حلفهم الثلاثي الذي قدّسته الأصول القديمة وأغاروا على «وار» للمرة الثانية تنفيذاً لخطّة جنوبيّة لا تريد أن تدع لمحارب «وار» أن يلتقطوا أنفاسهم بعد الفاجعة التي أسفر عنها الاشتباك الدموي في الليلة الأولى.

خلف التلال الذهبية الغربية انطفأت الشمس وتوارى قَبس النهار وبدأت غلالة العتمة تتكاثف وتستر الأفق.

الوحوش أوّل فريق خرج من النفق، واندفع نحو أسوار الواحة التي لحقها الدمار وأهلكها تخريب الليلة الأولى. ولم يكن صعباً على آخاد أن يلاحظ، في نسيج العتمة، خيالات بنات آوى وهي تتراكم جنباً إلى جنب، متجنّبة الإندفاع في طابور حتى لا تستيقظ فيها نزعة الغدر فتفتك ببعضها قبل أن تفتك بالعدوّ الأصلي.

ولم تكن تظاهرة الظلال الوحشية هي السبب الحقيقي الذي سحب الماء من جسم آخاد وجردّه من الندادة والدّم، ولكن هذا الصوت المتوعد،

لوحثي، الفجع، هو ما أثار فيه القشعريرة ففزع من بدنه العرق. في غلالة العتمة، تحت ضوء النجوم، رأى ذيول الغبار، وأنصت فسمع أنيناً فاجعاً كمرىض يحتضر:

- غ - غ - غ - غ - غ - غ - غ - غ - غ - غ -

استمرت الغنغنة حتى اختلطت بصيحات المقاتلين وهم يجمسون بعضهم ويحرضون رفاقهم. التحم الحصان. تحولت الغنغنة البشعة إلى غمغمة أبيض. قفزت الوحوش في رقاب المحاربين في نية للانتقام، فدافع الرجال عن أنفسهم بعد السيف.

تساقط الرجال.

تساقط الوحوش.

نزل إلى الساحة فوج جديد، مجهول، مهول، يتبدى في الظلمة بقامات الجبيرة، ويتلاشى مثل غلالات البخار. يمتطي مركبات الرياح، وينزل فجأة فتنبذ العجاجة ويسكن لسهن. يترابطون بلغة مبهمه لم يميز أهل الصحراء منها سوى الأصوات. بعضهم يزحف على الأرض بوضاعة الأقزام، ويتطاول فريق آخر في السواوت حتى يحجب نجوم الليل.

عرف الأهالي أن العدو قد دفع بجيش الجن إلى المعركة. وبرغم أن هذا الجيش الغامض لا يحمل سلاحاً كبقية الجيوش، إلا أنه أثار قزع المحاربين أكثر من جيش مسلح. ذلك أنه مزود بسلاح قديم صنعتها الأساطير إسمه: الخوف من أهالي الظلمات والخفاء، السكّان الأصليين للصحراء.

آخاد أيضاً خاف، فخالف بذلك وصية الحكماء المزبورة في «أنهي» المفقود، ويقول إن هلاك الإنس بيد الجن لا يأتي إلا إذا استسلم المخبوق للخوف. ولكن بعض اللؤماء عثبوا عن الحكمة بالقول إن هذا لا ينطبق على الحرّ وحدهم وإنما يشمل كل عدو، وكان هؤلاء اللؤماء يقولون إن «أنهي» لم يأت، هنا، بجديد، مشككين، بذلك، في أحكم الكتاب الصحراوي

المقدس! ولكن آخاد كان ميالاً لتصديق المزبورة لأن نصّها مدعوم بتفصيل أغفله اللؤماء بضيف الأسود إلى جوار الجن. منطوق الوصية يقول: «أيّاكم والخوف إذا واجهتم الجن والأسود». ولو لم يجرب المواجهة مع هذه الوحوش النبيلة لما توقع الخسران، ولما آمن الآن، وهو يواجه مرّة الخفاء، بأن الخوف بداية العدوّ التنازلي في طريق الهزيمة. وقد مرت ذكرى المواجهة مع الأسد في اللحظة التي تلبّسته فيها القشعريرة وفزع من بدنه العرق. تذكر التحذير، وتذكر، أيضاً، ردّ المشككين. ولكنه عاد فاستدرك وهو يتذكر منطوق الوصية حيث أضاف الكتاب الفقيّد الأسود إلى الجن. ولم يكن ليصدّق أن الهلاك في الخوف لولا مروره بتجربة الأسود في إحدى الغزوات إلى الأدغال.

تلك لم تكن غزوة كباقي الغزوات، ولكنها أقرب إلى الرحلة التجارية. قابضوا بعض البضائع في «كانو» فأغار عليهم بعض الأشقياء في طريق العودة إلى الشمال. لم يكونوا قطاع طرق عتريّين، ولكنهم كانوا جماعة من قبائل زنجية مختلفة عززت المجاعة وحدتها وصنعت، تحت ضغط الحاجة، حلفاً يغير على القوافل لينهب قوت يومه.

في تلك الغارة سلبوا منهم ثلاثة جمال وحمولة من الغلال. طاردوهم عبر الصحراء وتغلّوا جنوباً. بعد مسيرة ثلاثة أيام وجدوا أنفسهم في عتمة موحشة من الأدغال، ولكن الأشقياء احتجبوا. توقفوا واستظلّوا بشجرة مهية أحاطت جذعها السمين بعروق مثل صفائر النساء. إنهمك الرجال في إشعال النار وإعداد الشاي وابتعد هو عن الجماعة مسافة ليقي حاجته. هنا، داخل شبكة من الأحراش الملقوفة ككتل من النعابين، أعد له القدر اللقاء مع ملك الأدغال وميد الوحوش. وكانت هيئته الجليلة جذرية بهذا النقب حقاً: قمة هيفاء، بدن ضامر، رأس مرفوع، وعمامة كثيفة تلفت فوق الرأس. في عينيه يومض ذكاء، و. . ابتسامة مريّة، ساخرة. ابتسامة الحكماء الذين وقفوا على السرّ وعرفوا، بالتجربة، أن المسيرة ليست سوى لعبة قاسية طالما أن الحياة لا بدّ أن تنتهي إلى الباطل. مات يد آخاد على النكّة، وتبحّرت الحاجة إلى

نزل جيش الخفاء على السَّهل كالجراد. زحفوا نحو الأسوار بسكون الطيف. يرتدون أزياء باهتة. بعضهم تشبَّه بأهل الصحراء فلفَّ رأسه بأقنعة القماش، في حين أثار البعض الآخر أن يداهم العدو بلا رؤوس إمعاناً في التخويف وبثَّ الرعب في النفوس الجبانة. ويستطيع آخدا أن يقسم بـ«ثانيت» وأصرحة لأوليائه أنه شاهد نَفراً من الجن يسبِّرون على رؤوسهم وأرجلهم معلقة في الفضاء. عادوا فرغوا أصواتهم بالهسيس. ثم حوَّلوا المُهمَّسة إلى الغنغنة البغيضة فعاد ثوب الشوك يتلبَّس جلده. ولم يعرف أحد لماذا فروا الخروج من دنيا الخفاء والتبذُّي للناس برغم قدرتهم الطبيعية على الاختفاء. ولكن الحكماء في القبيلة أكَّدوا دائماً أن أخلاقهم لا تسمح بالغدر، وإذا حدث وتورَّطوا في لعبة مع أهل الصحراء فإن النبيل يقتضي إحترام قواعد اللعبة، والالتزام بشريعة «العراك إلى النهاية».

توقفوا عن الغنغنة.

هيمن السكون.

وقف أمام آخدا مارد بلون الظلمة، يرتدي ثوباً قصيراً، مضحكاً، لا يستر حتى ركبته، كما لاحظ أن الثوب ينحسر عن المعصمين، كأنه استعاره من طفل، أو، بالأصح، استعاره من أحد الحلفاء من مقاتلي بني آوى. فُرَّ العرق من بدن آخدا. تراجع الرِّيق من الفم. تراجع إلى الوراء خطوتين. نسي الظمأ في لحظة، كما نسي الخوف الموروث في نفس اللحظة أيضاً. ذلك أن هناك قواعد خفية، سرية، لا يتحلَّ بها إلا إنسي من الصحراء، وتقول إن المحارب لا يتحوَّل إلى بطل، أو حتى إله، إلا عندما تبدأ المعركة. لأنه لا ينسى الموت إلا في اللحظة التي يواجه فيها الموت. ولا يعرف أحد عما إذا كانت هذه القاعدة مستعارة أيضاً من «أنبي» أم أنها قانون طبيعي صنعتها الصحراء تفسيراً لحركة الإنسان فوق الصحراء. الحكماء يظنون على هذا القانون إسم: الشجاعة! وهي كلمة سرِّية وسحرية. والبرهان على ذلك

الحاجة التي جاء إلى الأحراش خصيصاً ليقضيها. وفي لحظة استعاد كن ميراث أهل الصحراء المتعلِّق بأخلاق هذا الحيوان الجليل، الجميل، والمخيف أيضاً. وأسوأ أنواع الخوف هو ذلك الذي يمزج فيه الجلال والجمال. الجلال يعطيه العمق والغموض، والجمال يمنحه سلاح الإغواء ويمدِّه بالقدرة على الاستدراج. استمرَّت المواجهة لحظات. ظلَّ الملك يجدِّج بفضول دون أن يخفي السخرية في نظرتة. بل إنه تمسَّك بهذا التعبير المبهم حتى عندما استدار ومشى بتباطؤ وكبرياء حتى حجبتة شبكة لأحراش.

عاد آخدا إلى الموقع دون أن يصدِّق أنه نجا. والفرح بالنجاة هو الذي جعله يرتكب ذلك الخطأ القاتل فيروي ما حدث للأفغان الخبيثاء. أعطاهم الفرصة ليشنَّعوا عليه وينسجوا الأسطورة. قالوا: «هل تعرفون لماذا لم يقتل الأسد آخدا؟ لأنه وجده في موقف ذليل. رجل نبيل يتخلَّص من الفضلات. مكتوب في «أنبي» أن الملك لا يتنازل لمشاراة الجبناء الذي يلوِّثون سراويلهم بالعفن والفضلات خوفاً. ألَّم تشوَّه سراويلك بالعفونة يا آخدا؟ ها - ها - ها...». ولم تقب الفضيحة عند هذا الحدِّ. فبلغ الأمر الشاعرة. وكان أن تمجَّتْ بقصيدة شاعت في القبيلة، وحالفها الحظ في الموهبة فجاء الشعر أصيلاً إلى درجة ألهته للانتشار بين القبائل المجاورة، وما لبث أن تجاوز حدود الصحراء الوسطى فبلغ جهات القارة الأربع. ما أسرع ما تنتقل الفضائح في الصحراء! يُقال إن الرِّيح هومتْ بتوتُّ نشر الفضائح في هذه القارة. لم يحاول أن يقاوم الشائعة وآثر السكوت، لأنه يعلم أنه كان سيرتكب حماقة أكبر لو روى لهم الحقيقة وقال إنه لم يخف ولم يرتجف، ولكن لعنة الظمأ هي المسؤولة عن حالة الشلل. جفَّ في حلقه الرِّيق، وتبيَّست الرطوبة في الحلق وتبَخَّرت الندوة من اللسان والفم.

هيهات أن يفهم الأصحاء لعنة علَّقها في رقبته القدر قبل الميلاد.

- هيء - هيء - هيء - هيء -

عَادَ له الصَّفء فأذركَ ما حدث. تلقَى ضربة بين كتفيه. ضربة قاسية تستحق أن تُنسب إلى الجن. لم تكن ضربة من سيف أو هراوة، لأن مكان الظلمات لا يستعملون لا الحديد ولا المصنوعات.

ولكن أي سلاح يمكن أن يكون بهذه القساوة؟ أية أداة يمكن أن تسبب هذا الألم؟ آه. حقاً إن اليد العارية أقوى من السيف. غُلُ الخلق المبتوث في البدن، المملود في الدَّم، يفوق أي حقد آخر. ويبدو أن هذا يشمل الجن كما يشمل الإنسان. يبدو أن قوانين الحقد واحدة. قوانين البدن واحدة في كلا الملكتين. ولو لم تكن هذه القوانين واحدة لما رجع الآن وتقياً بالصوت القبيح، المخجل، الذي سيجلب له عاراً جديداً لو وصل أمره إلى أذن الشاعرة.

تلقَى ضربة أقوى بين المنكين. أفلتت من صدره آهة أليمة وأحس ببرارة في القم. لم تنح له الغيبوبة فرصة كي يتأكد مما إذا كان السبب في المראה انجاس الدَّم، لأن الظلمة زحفت وحجبت الذاكرة بستر من النسيان. إنكفأ عن وجهه وقبَل التراب. لم يقدر أن يقدر كم من الوقت استغرقت القبلية، ولكنه سمع الضحكة المخنوقة، الساخرة، الشريرة، بمجرد أن عاد إلى الوعي:

- هيء - هيء - هيء - هيء - هيء -

جرَّه الجنّي الكافر طويلاً - فوق عراء متّوع في التضاريس: رمي تارة، ومغطى بالحصى اشترس تارة أخرى، ومكسّر بحجارة حَزَازة تارات كثيرة. وخلال هذا السُّحل لم يتوقف الخصم عن الهأهأة الشامتة، المكتومة، الشريرة. أكلت الحجارة الشرهة اللحم في الركبتين والرسغين وأحسّ يبدنه يشتعل وينسلخ كما تُسلخ الشاة. تمرّقت ثيابه عن أطرافه ولم يبق من الزي الفضفاض سوى أسبال تستر الصدر والعجيزتين. عاد له الوعي ففتح عينيه.

أنها، مثل النوم، لا تغيء إلا عندما تباث من محيطها. بل وتنسى وجودها أيضاً. وما زاد من مفعول كلمة السرّ هو مواجهة الخصم له بيد عزلاء من لسلّاح، إلا إذا حسبتا جلال الظلمات ورهبة الخفاء سلاحاً. ويبدو أن هذا لسلّاح هو ما يطلق عليه «آهبي» بلغته القديمة، الغامضة؛ إسم: الخوف!

لم يجد أحقاد، بعد أن استيقظ فيه كنز الشجاعة المغمور، صعوبة في أن يجرّ رأس الخصم بالسيف. تحيّل له أنه رأى مافورة من الدَّم تومض، تحت ضوء النجوم، بهريق خاطف، وشاهد، يقيناً، رأس الجنّي يتدحرج على التراب. تدحرج ثلاث سرات أو أربع ملفوفاً في قناع الكتان، ولكن ضوء النجوم، ذلك الشاهد السامّي الوحيد على هذا العمل البطولي، لم يكن كافياً كي يرى تعبير العينين الحيتين وهما تنفصلان عن المنكين وتغضيان في رحلة العودة إلى التراب الذي خرجنا منه. طُنّ أحقاد أن الأمر انتهى، والمعركة قد تحيمنت، ونسي في غبار الحماس أن خصمه لا بدّ أن يملك مزايا أخرى مجهولة طالما اعترف لنفسه أنه لس من دنيا الإنسان. وكَم كانت دهشته كبيرة عندما سمع فوق رأسه ضحكة غريبة، ساخرة، وأسوأ من هذا كله، شريرة:

- هيء - هيء - هيء - هيء -

رفع رأسه إلى أعلى فرأى المارد ينمو، ويكبر، ويزداد تصاولاً في السماء. حاول أن يشاهد المنكين العارين من الرأس، ويقف على حيل أهل الخفاء. ولكن القامة تمادت في الامتداد، وقطعت مسافة طويلة في طريقها إلى المساوات العليا لحفظتها. . .

ماذا حدث في تلك اللحظة؟

وجد نفسه يجرّ راكمًا على ركبتيه. سقط السيف من يده وغاب نصله في الرمل. غاب الدّوار وشرّع بتقياً بصوت مقرّز، عالٍ، لا يليق أبداً بالفارسان.

سمع الخصم يرفع عقيرته القبيحة بضحكة ليّيمة، شامتة:

اجتاز البرزخ الغامض، عبّر إلى الصّفة الأخرى، وعرف، في ومضة صفاء، أنّه لن يعود من نفس الطريق أبداً. أبداً. أبداً.

موسكو

١٣/٤/١٩٩١م

الجلد

(١)

حلوا عليه لأنه زكّن إلى السهل. إتهموه بمخالفة وصايا الكتاب المفقود عندما استقرّ بالأرض أكثر من أربعين يوماً. استحووا أن يواجهوه بالتهمة فأوكلوا بالمهمة للمعمر «بكرة». «ستغلّوا تبجيله للحكام والمعمرين الذين لم يبق لهم في الدنيا شيئاً سوى الإنصات للصمت والإعتصام بالسكون. كانوا يعرفون أنه سيستمع إلى الشيخ «بكرة» وسيقبل منه الإدانة حتى لو كانت تتعلق بالاستسلام للأرض والركون إلى العبودية. ولم يحبّب الشيخ حكيم ظنهم فرمى في وجهه بالتهمة في خباء الاجتماع وعاد ليعتصم بالسكون الخالد. قال كلمته ومضى من الصحراء إلى سكون الصحراء. رجه بالتهمة ولاذ بالحرم البعيد، بالبرزخ المظلم على الآخرة، لأنه يعرف أن الزعيم لن يلاحقه إلى هناك بالاستنكار، ولا بالاحتجاج، ولا بالمبارزة. لأن المعمر، في أخلاق الصحراء، في شريعة الصحراء، هو المخلوق الوحيد الذي يستطيع أن يرفع صوته في وجه الزعيم ويعترض على أحكامه دون أن يعرّض يومه للقلق أو ليله للأرق. يستطيع أن يجاهر بالمعارضة والمخالفة والرأي ويعود إلى بيته ليتمتع، في ظل العثيّة، بشرب لشاي الأخضر ومشاهدة الأفق المغمر بسرّاب والإنصات لصوت الله في السكون الخالد.

تابع ملاعنه وهو يتوارى. تابع الغياب في أخايد الوجنتين وتجايد

يقيناً أنه لم يكن المخلوق الوحيد الذي جُربَ الجذب، ولكنه على يقين أيضاً أن الجذب هو الذي أجبره أن يتخلّى عن عقيدة التخلّي طوال سنوات. كان حديثاً فريداً من «الصحراء».

بدأ الحريق، ذلك العام، في الصحراء الجنوبية. جاء بخبره تجّار القوافل، ورووا قصصاً موحعة عن قساوته وضحاياه. في العام التالي زحف على الصحراء الوسطى، وشرّع يهيمن على المراعي الممتدة من «مسك ملت» و«مسك صطفت» شرقاً حتى تاسيني ووادي «أميهو» غرباً. ولم يكن بخل السهء بالماء وحده سبب الحريق، ولكن أنفاس القبلي، التي لم تتوقف طوال شهور، قتلت الحية في الشجر والنباتات الكبيرة التي تتحمل العطش طويلاً وتتخذها المواشي مؤنة سنوات الجذب، ففقد الرعاة الأمل. استدعا زعيم القبيلة وأوكل له مهمة إنقاذ قطعان الإبل. قال: «أعرف أن الأمل ضعيف في إنقاذ قطعان الماعز، ولكن أنت تعرف ما معنى أن تهلك الإبل. عودتنا أن نخرج لنا بحكمة كلما احتكمت إلى العقل، ونحن اليوم أحوج إلى الحكمة أكثر من يوم مضى عندما حكمتك في تجنّب الحروب القبيلة. هيا: أرن مفاجأة أخرى من مفاجآت العقل، وأنقذ لنا القطيع». كعاد يتجاسر ويقول: «قد ينفذ العقل في إيجاد لغة مشتركة بين الخصوم، وقد يتحائل في تجنّب الضدام بين القبائل، ولكن هل يستطيع العقل أن يتحدى القدر؟ هل يمرؤ على منازعة القبلي ومواجهة إرادة السّاء؟». منعه الحياء، فخرج من خباء الزعيم وذهب ليطلب المعجزة في رحاب العقل.

اجتمع مع الرعاة الحكماء، وتسفّط أخبار المطر، فاجمعوا أن الماء تراجع في السابوات في السنتين الأخيرتين في كل الصحراء. اهتمّ بالصحراء الشبالية فقالوا إن الحماة الحمراء احترقت أيضاً بالجذب.

لم ييأس.

الجبين. ولم يتوقف عن المتابعة حتى اختفى الشيخ من الاجتماع، ومن السهل ودخل لخلاء الفسيح، الممسود، المفضي، في مكان ما، إلى السّاء. ذهب «بكه» وبقي الاحتجاج. خرج الحكيم وظلّ بينهم الوعاء القديم. وربما كان لهذا، «الخروج» أثره فيما بعد عندما اضطرّ هو، الزعيم، أن يبرؤ على الإدانة فيحاورة الشيخ «باخي» نيايةً عن بكّة «الرّاحل». لم يشارك بكّة في الحوار لتالي بكلمة، ولم يبد أن عزوفه عن المشاركة قد أثار دهشة أحد في الاجتماع. كان إنسحابه الخفي واعتصامه بملكوت السكون كان شرطاً مسبقاً لحضور لمحكمة. كأنّ مسؤوليته ترفقت عند حدّ التجاسر بتعليق الحرس في رفة لقطة ومن ثمّ الإنسحاب إلى الخبوات التي لا يكدّها شيء، ولا يُسمع فيها إلا صوت الله. وهيهات أن يجرؤ على ملاحقته في هذا البرزخ مخلوق!

ولكن عن الزعيم الحكيم أن يتوقّع اعتصام أمثال بكّة بتلابيب السكون، ببرزخ اللامكان، بمجرد أن بدلوا برأي الجماعة في سلوك الرّعمة، وربما في أخلاق الزعيم نفسه. هذا حق الشيخوخة على القبيلة كلّها، قبل أن يكون حساباً للجماعة في حق الزعيم وحده.

فهل نطق بكّة بالحق، واستحقّ هو، كزعيم ولوّه بانفسهم زمام الأمر، الإدانة حقاً؟ هل فرط في البئر، ورهن، إهمالاً، حلمة الأرض بيد الأغراب، راهناً معها أعناقهم، صانعاً منهم عبيداً للأرض وللعسد؟ التزم نعتهم في جوابه. حدّثهم بلوقائع وقدم المبررات الأرضية. ولكنه تجنّب لدخول في المجدهل ولم يستعمل اللّغة السرية. لم يفعل لا لمعرفته، أو خشيته، أنهم لن يفهموه كما يريد أن يفهم، ولكن لأن ثمة أشياء خفية يجب على الرجل التّيبيل، أو فلنقل لشجاع، أن يخاطب بها نفسه وحدها.

حدّثهم يومها عن الاعتدال والإمسك بالعصا من الوسط، وأخفى عنهم اللغة الخفية.

إختل براعٌ عجوز وسأله: «أنت تعرف أن وأشك مقرن»^(*) يبقى أخضر لزمن يصل إلى العامين بعد السيل. ألم تشتم رائحة سحابة عابرة منذ عامين؟». تفحصه الراعي طويلاً، أدخل يده في جيبه وأخرج دقيق التبغ. استنشقه على دفعتين وسعل مرتين ثم ابتسم. همس كأنه يكشف عن كنز: لا يُعَدُّم أن تعثر على «تير هيت»^(**) في رملة زلّاف.

جمع القطعان وقاد القافلة إلى زلّاف.

هناك لم يمكث أكثر من ثلاثة أشهر. إنتهمت لجمال الجائعة النبات الشحيح في الشهرين الأول والثاني، وعاشت على الاجتر الزمن الآخر. جلس آده تحت النخلة المعتزلة في البحر الزملي الفاجع، واستبشار العقل. طويلاً. تذكر حيل الصحراء الشبلية، فهأ عقله وأمر الرعاة أن يتبعوه بالابل.

(٣)

جبل الصحراء الشبلية. إبداع حققته عبقرية الحماة. مقاومة سرية لقوى التخریب. استعطف ذكي لرحمة النساء وليس تحدياً لإرادة القادر. فلكي تقيم التوازن الضروري لاستمرار معجزة الحياة لا بد من التحايل على انقلي والجفاف والقط. ولولا الموهبة الإبداعية، لولا العبقرية الخفية، لولا مساندة الإرادة السماوية، لما اجتازت المحن البرية وحقت التحيل. فإذا هب الفيل المكاير، ورأت في سلوكه، المعاندة والثبات والنية في الاستمرار والخلود، انحنت له راکعة حتى يتيقن أنها، الحماة، قد رضت بالتسليم عقيدة. فإذا تيقن سكر بالرّضى والكبرياء والغرور، وإذا سكر بالرّضى والكبرياء والغرور تباطأ، وتبختر في مسيرته وتشبه بنبلاء الصحراء المكايرين. عندها تنتهز الحماة

(*) أشك مقرن. أعشاب الصحراء التي تنبت عقب الأمطار الموسمية وتكر حتى تساقط الشجر الدري.
(**) تير هيت: نبات صحراوي ينمو في الصحراء الوسطى (تخمين).

الفرصة وتنسل في طريقين متعكسين: طريق يذهب للصلاة فوق الجبال الزرق واستعطف السواوات. والطريق الثاني يمضي إلى الشمال حتى يصل جبل نفوسة: هناك تتسكى وتبتكى وتقيم مأتماً للبقعة المهذبة بالفاء، طالبة النجدة. ترقى قلوب الألهة، وتب لإيقاظ الفردوس الصحراوي. تحيى الإمدادات من الجانين: من اجبل الأزرق في الجنوب، ومن جبل نفوسة في أقصى الشمال. تأتي الرحمة بإمدادات سرية، غامضة، لا يكتشف أمرها إلا الرعاة الحكماء وعشاق الحماة الحمراء، لأنها رفضت دائماً أن تبوح بالسِرِّ لمخلوق باستثناء هذين الفريقين.

وما إنبار، والعشاق والرعاة دوماً هو هذه الطبيعة المجاعة، وانغامضة، والإعجازية، التي تقبل بها رحمة الحماة. يترفع الراعي في أرض جدياء، يغني مواويل ليأس والجوع، بجوار موقد النار، يغفل عن نفسه بمنجاة النجوم الغامضة، ولا يفطن من هذه الوجد إلا على الفحيح الجليل. الفحيح المقدس الذي تنطق به النار عندما تتلاصق، فجأة، مع لسان السيل. أين؟ متى؟ كيف؟ أين حدث العشق؟ أين عاشرت النساء قربنتها الأرض؟

متى حدثت المعجزة والمهد يصهر جسد الصحراء؟ الأرض محرومة من الماء حتى في فصل الشتاء فأي حكمة في هذا المنّ المفاجيء، القادم في زمان المحنة والحرمان واللاميعاد؟

وكيف استطاع السيل أن يحو المكتوب ويخدع القادر؟ كيف استغفل لعنة الصحراء الأزلية وجلب هذا الكم العظيم من الغر السلسيل؟

الفحيح الجليل. اللغة المقدسة. لغة التحوار لحظة لقاء التقيض. إيهام هذه اللغة ليس في توجع قطعة الجمر وهي تنطفئ، ولكن في أهات الأرض نفسها. الأرض المرضاء، الظمأى، التي انتظرت العطاء العجيب منذ زمن قد يمتد، في بعض الأماكن، إلى مليون عام. وكم مرة أنصت آده مدهوشاً لهذه التمتمة، للهفة، لهذا التوجع المجهول. لتبقى الأرض في البدء، ثم

تكتسي بفقاغات كبيرة، تنفجر وتلتأني في الحال، تشأوه أرض الوادي، وتئن كإمرأة تعاني آلام المخاض، ثم... ثم يصعد البخار. بخار الفرح والوجع. بخار الانحرام واللقاء. البخار الذي يبشر بفعل العشق، ويشير إلى الميلاد.

ولا أحد يعرف كم كلف استجداء هذه السحابة، هذه المعجزة، الحداثة من بكاء ومرثيات وتوسلات. ولكن الرعاة يعرفون. والعشاق يعرفون.

(4)

تفوز هذه البقعة بسيول مجهولة، وتبقى الأرض المجاورة، في الوادي القريب، جدياء، عارية، تحترق وتحضر، تهلك فيها القطعان جوعاً، ويموت الرعاة عطشاً، في حين يفيض الوادي الآخر، المحفوظ، بكنز من الماء، ومن الكلال، ومن الترفاس. ومن لا يعرف سرّ الصحراء، من لا يعيش الصحراء، لن يفهم على هذا التوزيع الخفي للمياه، ولن يفهم مفاجآت الحداثة، ولن يعرف أن هذا العمل العبقري هو جزء من تكوين هذا الفردوس الصحراوي العريق.



في الحداثة الفسيحة، المكشوفة، لمجهولة، عمّ الجفاف وهيمن السراب. بحث عن آثار السحب الوحيدة، المهاجرة، في الأودية الخفية، فلم يعثر إلا على بقايا شحبة من «أشك مقرن»، وأطلال باثة لشجر الطلح القادر على مقاومة العطش. ولكن الجذب الطويل الشامل استطاع أن يقهر الطلح أيضاً ويحطّم فيه الكبرياء.

لم يتوقف عن البحث، ولم يكف عن التنقّل. مضت شهور أخرى قبل أن تاكل الجبال الجوانق، وينكشف أمر الراعي الذي أكل نعله الجلدي.

في المرحلة الأولى قضت اجمال على أعواد الطلح المنصوبة في الخلاء كالأشبح. ثم تمادت وانحنت لتأكل الحطب اليابس. قال له أكبر الرعاة سناً:

«لم يبق إلا أن تأكل الحجارة». ضحك بعصبية وهو يحكم زمائته السوداء حول فمه الفارع من الأسنان.

فهم الإشارة الخفية. الابهاء الفاجعة التي خبأها الراعي المعجوز في الجملة القاسية. ترجم لنفسه العبارة السرية هكذا: «قريباً سيضطررنا الجوع أن نأكل الحجارة».

في الليل تحدّث نفس الراعي بإسهاب كيف فاجأ قريباً يفتحم الخناء ويلوك غرارة منسوجة من الوبر. ضحك بعصبية مرة أخرى، ورفع طرف لثامة العلوي وأحكمه حول أنفه قبل أن يلقي بؤول:

- هل دأيتم جهلاً فحداً يأكل ويرأ؟ هل يعقل أن يبيع الجوع بمخلوق حداً يجعله يتتلع وبره؟ يتلع جلده؟

كانوا يتحلّقون حول النار. يعدّون فنجان الشاي المسائي. المجاعة ضربت شعائر الشاي الأخضر أيضاً. في البداية اختفى السكر. آخر قالب قايضوه مقابل ثني أصيل مع قافلة عائدة إلى غدامس. ظلوا يتفنون في استعماله ويتصدون ويتحايلون إلى أن اختصروا الشعائر إلى دور واحد من الشاي يدل الأدوار الثلاثة التقليدية. وبرغم ما عاناه الرعاة من صداع بسبب اختصار الكمية التي تعودوا تناولها يومياً، إلا أن آده رفض التنزل فلم يعتدل ويرضى برفع الأدوات إلى الثين. ورّد رفقه هذه الحادثة فيها بعد، واعتبروها المرة الوحيدة التي زهد فيها آده في الاعتدال وأبى أن يمسك العصا من الوسط!

وبرغم الحيلة إلا أن القالب ذاب ولم يجدوا قافلة ترضى بمقايضتهم السكر حتى بجملين مقابل القالب الواحد. هنا ابتدع أحد الرعاة الذين يعددون بأصبعهم إلى تاسلي، طريقة لا تليق إلا بسكان الكهوف والشقوق. أعدّ لهم الشاي بمصير التمر. وطبيعي أن آده رفض أن يتناول هذا المشروب المقرز، وفضّل أن يحتسي نصيبه من الشاي بدون سكر.

في تلك الليلة تولى نفس الراعي إعداد الشاي، وحرص أن يضع وعاء آخرأ خصاصاً بشاي آده.

هيمن الصمت. لم يعلق أحد. في الصباح جاءه معاونه وأخبره أنه تفقد «الكنز» واكتشف اختفاء أحد أكياس التمر.

(٥)

هل كان صعباً عليه أن يكتشف الفاعل؟ لا. ولكنه أثر الأ يكشف عنه حتى نفسه. أمر معاونه أن يترك الأمر سراً. وفي الليل تبادل نظرة عابرة، ولكنها دالة، مع العجوز. نكس الراعي رأسه حالاً، وهرب هو ببصره وحدث في النَّار. قرر أن يدفن السر إلى الأبد لولا تدخل القدر في نفس الليلة، بل في نفس اللحظة. إذ سمع مساعده يقول:

- منذ أيام ضبطت رجلاً متلبساً..

استنقَر الرعاة وحسبوا، أنفاسهم، أنصتوا بكل حواسهم المتعطشة، دائماً، لسمع الفضائح وأخبار العار.

أضاف المساعد:

- وجدت رجلاً وفوراً يتوَّج رأسه بعمامة وينحني لياكل مداسه.

هتف أكثر من صوت:

لا -

عاد الصمت الفاجع، المزعج، يهيمن. تعلقت الأبصار بلثام المعاون الخبيث. وكى يضفي هالة من الجلال والتشويق على الأسطورة أضاف بمرود لا يتقنه إلا الذهابة:

- نعم، شوى نعله الأيمن في النَّار وأكله!

تدخل آده:

- وكيف تستطيع أن تثبت هذا، العار؟

هنا فوجيء الجميع بالمساعد يضحك منحنيًا إلى الورااء حتى لامت الأرض بطرف عامته الخلفي. إعتدل في جلسته وقال بنفس البرود:

تابع آده حركة الراعي العجوز وهو يكشف عن فمه الخالي من لأسنان ويرشف الشاي المخلوط بمرسة التمر. أحس بالقلق. ليس فقط. ربي كان شفقة. بُنيه لراعي النحيلة، وبروز وجنتيه، أثارت فيه شفقة مبهمة. لا. لا. ليس هيكنه العظمي هو ما أثار فيه ذلك الشعور الأليم، الغامض، في تلك الليلة، ولكن شيئاً آخر. شيء حزين استوحاه في لغته عندما تحدث عن الجمل الذي أجبره الجوع أن يأكل جوال الوبر. نفس الإيحاء الذي أحسّه عندما إقترب منه الراعي في الخلاء وقال له: «لم يبق للجبال إلا أن تأكل الحجارة». وفي كل مرة يعقب على الجملة بضحكة متوترة.

والحق أن الجوع فعن بهم أسوأ مما فعله بالجمل. ولم يبق من المؤنة موى يضع حفنات من التمر، ورعها بين عدة أكياس قبل أيام وذهب إلى الروابي وأخفاها في الشقوق والحفر متمسداً أن تكون على مسافات متباعدة. هذا المحزون، لبائس هو رصيدهم لليوم الأسوأ. أرسل أحد الرعاة إلى طريق القوافل في محاولة لمقايضة الشعر بالجبال ولكن الراعي لم يعد. ويذكر النظرة الكئيبة التي حدجه بها الراعي العجوز عندما أخفى «الكنز» وعاد إلى الموقع. كانت نظرة عابرة، خاطفة، بدت بريئة، ولكنها مضت ببريق فاجع، موجه.

ليلتها عُقب راعي تاسيلي عن تعليق العجوز:

- الإبل تَضَع الجوال ليس لأنه منسوج من وبر، وإنما لأنها اشتئت فيه رائحة الشعر.

نالت الملاحظة تأييد الجماعة. غضب الراعي. احمرت عيناه مثل قطعيتين من الجمر، فزبد ناصع من شفثيه وتكلم بصوت حيواني:

- الإبل لا تأكل جلدها بدون سبب. هل فهمت؟ الإبل ترتكب الحماقة لأنها جائعة. هل فهمت؟ جائعة. جائعة. جائعة.

قفز وفر إلى الخلاء.

- هذا أسط مما تتوقعون. أوكلوا لأحدكم مهمّة تفقد النعال غداً،
وستجدون أن رجلاً وقوراً ببنا غلبته بطنه فأكل نعله الأيمن كما تؤكل قطعة
لحم. ها - ها - ها. . .

(٦)

بعد أيام استضاف عابر سبيل. أخبر أنّه أقبل من غدامس في طريقه إلى
زويلة. ذهب آده إلى الزاوية وعاد بكيس التمر. قدّم حفنتين إلى ضيفه
وتظاهر بالانشغال في إعداد الشاي حتّى لا يضطر لمنافسة الضيف طعامه
البشيس. ويبدو أن عابر السبيل فطن إلى هذه الحيلة الصحراوية فمضى يلوك
حبّات التمر ويتسمّم بحزن.

في الصباح قل لآده عندما شيعه في العراء إتماماً لشعائر لضيافة:

- تستطيع أن تتجه شمالاً بعد ثلاثة أسابيع باليوم والليلة. فإذا بلغت
العرقوب الجبلي المشرف على «القريات» إنحرف يساراً لمسيرة ثلاثة أيام. هناك
ستجد مفاجأة.

ابتسم آده فأضاف الضيف:

- ستجد كنزاً!

قال آده مداعباً:

- ومنّ قال لك أني أريد كنزاً؟ أنا لا أريد سوى الماء. كنزي هو الماء.

قال الضيف بغموض:

- ومنّ أخبرك أنك لن تجد هناك الماء؟

ابتسم آده مرة أخرى وسأل بخشونة:

- هل أنت عراف؟

فاجاب العابر بنفس اللغة الخفيفة:

- هل ستنحر رجلاً إذا خسرت الرّهان وعرفت أنّي عراف؟

قال آده ببأس:

- ظننت أني أعرف حيل الصحراء. حاولت أن أجِد مخابء المياه التي
خصّص بها السماء الوديان المهجورة، ولكنّ الحظ لم يحالفني إلا مرة واحدة هذا
العام.

تكلّم العابر بحماس:

- مغرور حقاً منّ ظنّ أنه يعرف الصحراء. إنها سرّ كبير مثل المرأة.

ردّد آده بلا إرادة:

- سر كبير مثل المرأة. أكثر غموضاً من المرأة.

التصّب بينهما للصمت. تلهّى آده بدحرجة-حجارة الطريق. استوقفه
الضيف فجأة. حدّق في عييه كأنه يقرأ في مقتلتيها سرّاً وقال بحماس:

- هن ظننت أني أجهل أنّك أطعمتني آخر حيّة غر في الحيادة كلّها؟

ارتبك آده ولم يجد أين يهرب بعينيّه. استنجد بالثام وأنزل طرفه العلوي
على عينيّه. واصل الضيف بنفس الحماس:

- هن ظننت أني لا أعرف ماذا يمكن أن تساوي حفنة كاملة من التمر في
صحراء زمن القحط؟ هل أردت أن تسيء بي الظنّ؟

قال آده بخجل:

- لم أفعل إلاّ أصغر واجب نحو عابر السبيل.

- لقد قيدتني بسلسلة طوها سبعون ذراعاً. وإذا أنكرت القيد فيأتي
أنكرت النبل والعرفان بالجميل، سأحتقر نفسي إلى الأبد إذا لم يعدّ بي
ضميري بسبب هذا الكرم.

تعلّق الضيف بيديه. ضغطها بين يديه بأنفعال فقال آده بهدوء:

- لا أظنّ أن الأمر يستحق هذا الاتهام. تستطيع أن تنسى أنّك عبرت
الحيدة هذا العام فتحرر، بذلك، من السلسلة.

ضحك الرجل ضحكة خاوية وخاطبه ساخراً:

- هل أنسى أن رجلاً قدّم لي زاده كلّهُ في الوقت الذي يأكل فيه رجاله

كان في توسلاته طفولة. طفولة أثارت في آده شفقة غامضة. ولم يكف عن ملاحظته والتعلق بيديه حتى عااهده آده بأنه سينفذ الوصية.

(٧)

هَرَعَ إليه المساعد عند الضُحى. أدركه في وادٍ، خلف الرابية الشرقية، وهو ينهض في تخليص بدن المهري من القُرَد الحبيث. وقف في مواجهته لا هُتً. مضت لحظات قبل أن يلتقط أنفاسه وينطق بكلمة واحدة ذات معنى: - العجوز. . .

تبادلا نظرة قرأ فيها آده وسواساً مجهولاً ظلَّ يهمس له طوال الليل. وسواس ابتدأ مع الاعتداء على مطمور التمر، وتمادى بعد الحوار مع عابر السبيل في شأن الثعل الجلدِي المأكول!

تحرك آده خلف المساعد نحو الوديان الغربية. لم يستطع الوقار أن يجر المساعد على ضبط النفس فهروا في مشيته، وتلاحقت أنفاسه. ومسح العرق عن جبينه عدّة مرات. وعندما أطلَّ على الوادي تَوَقَّفَ وانتظرو وصول آده كأنه يخشى النزول وحيداً إلى المكان.

أشار المرافق بسببائه، ولكن آده نزل المنحدر ومضى، وقد انتقلت إليه عدوى الهرولة، إلى المَطلحة المتَّوجة بفروة مية من الشوك. تحت المَطلحة تمخّذ العجوز على قفاه. مقلّتا كبيرتان، صافيتان، اكتسبهما بياض شامل، تحذفان في الساء، في الشمس، في الفراغ، بغموض وكبرياء. في الحذقتين ظلَّ خمي من سؤال معلق. حوله تائر الدّم في برك صغيرة، وبتع كبيرة امتصّت البقعة الرملية الظمأى نداوتها، فتيست وشحبت وتنشبه لونها بلون الأرض الرملية. ولكن البرك الصغيرة المحاطة بالبدن احتفظت بنضارها وبكررتها وظلّت قانية، متخفّرة تعلوها طبقة رجراجة، قاسية، مخاطية، ظلّت تلمع تحت شمس الضُحى. اليد اليمنى مفصولة عن الجسد حتى الرّسغ. ملقاة بإهمال بجوار الجثمان كأنها قطعة حطّط. برز في طرفها المتزخّع عرق أبيض مثل النخاع، في

نعالمهم جوعاً؟ هل أنسى الرّجل، الذي وضع، بهذا العمل، الوهق في رقبتي، وامتلكني إلى الأبد؟

انتفض آده. تراجع إلى الوراء خطوة. فَرَّ منه العرق، ولكنه لم يتكلّم. قرأ لضيف سؤاله في عينه فتطرّع للجواب:
- تريد أن تعرف كيف عرفت أمر الثعل. أعلم أن لا شيء يخفى في الصحراء. ولا يجب أن بدهتلك أن تعرف أن الرّاعي العجوز هو الذي أخبرني.

ردّد آده بلا وعي:

- الرّاعي العجوز؟

- نعم. نعم. وقال أيضاً أن لا معنى للعار بالنسبة لرجل عجوز مثله يضع رجلاً في الحماة وأخرى في فم القبر. قال إن العجوز يستطيع أن يفعل ذلك لأنه لا يطمع في الفوز بصبيّة، ولا يأبه لقصائد الهجاء، فلماذا تستكروا عليه أن يمدّ يده إلى كيس الثمر المظمور عند الرابية أو يشوي نعله الأيمن في العراء بعيداً عن أعين بقية الرّعاة. اعتزف بك أنه كان ظريفاً وحكيماً، وقد ظلّ يثرثر فوق رأسي طوال الليل ويروي أساطير شيقة عن نقائص الصحراء في الجذب والسيل والموت والحياة. أنا مدين له لأنه نهني إلى حفنة ثمر، وعليّ الآن أن أرء الذين قبل أن تمتلكني إلى الأبد.

لوح آده بيده في الهواء إحتجاجاً، أراد أن يهني الحوار فقال:

- لا أحد يملك أحداً بحفنة تمر فكفّت عن السخوية. تستطيع أن تكون على يقين من أننا لم نلتقي في الحماة عام الجذب.

ولكن الضيف إعترض بالحاح:

- عذني أنك ستنفذ وصيتي وتذهب إلى غرب القريات. عذني حتى أقدر أن أنام هذه الليلة وأنا على يقين من أن حبلاً طولُه سبعون ذراعاً لا يتلف حول رقبتي كثعبان الأذغال. عذني. . .

حين غطت حبيبات الرَّمْل الطرف السفلي، حيث نَزَتْ آخر قطرات الدَّم قبل أن تتوقف وتتبسّس وتهرع لامتصاصها حبيبات الرَّمْل المظامنة. أمّا الرِّسْغ نفسه فبقي مختفياً تحت الكُمّ المفضفاض. ولكنَّ اللزج آثر أن يحتمي بالبدن، ويتحد بطرف الثوب الملاصق للرمال الشَّرة. الرُّجل اليمنى أيضاً لم تنج من العدوان. تعرّضت للقطع عند الركبة، ولكن الشجاعة، أو نبض الحياة، لم يتحّ للعجز أن ينهي عمه الوحشي. استطاع أن يستر الجزء الأكبر ويفصله عن الأصل، ولكن بقيت بعض العروق وجزء من العظم متشبّهاً بالفخذ، متمسكاً بالأصل، بالمنتب، بالحياة.

ويبدو أن هذا العمل أنهكه واستنفذ قواه فغلبته الغيبة قبل أن ينهيه. السروال مُشتمَر حتى الفخذ، مغمور بالذماء، كما تناثرت قطع صغيرة كأعواد الحطب، من العظام، بجوار الركبة المنزوعة. الرُّجل اليمنى حافية، في حين حرص المستحضر على أن يترك الرُّجل اليسرى مربوطة بالفردة الأخرى من نعل الجلد.

بحوار الرُّجل الأخرى، السَّلالة، تناثرت عدّة العمل: مِدْيَة تباوية شرسة، مطواة خاصّة بتشميش الحطب، ولوح صغير من حجر.

في الوادي أقبل الذباب، وبدأ يطنُّ كأنه ينوح.

(٨)

وكَلِّما جاءت سيرة الجذب، وجاء الرِّعاة والرَّحَل وعابرو لسيبل بأخباره وأفعاله تذكر اليد المبتورة، الملقاة على الأرض كعمود من حطب، والسَّاق المشرومة، المتشبّية، بواسطة عروق بائسة، بالفخذ، ورأى الألق الحفني المتلامع فوق برك الدَّم، وسمع نواح الذباب.

اليد والسَّاق والألق والنَّواح غول بأربعة رؤوس دفعه إلى السَّهل فرائط يقبضه على بشر «خَلْمة الأرض» عندما انتشرت أخبار الجذب في الصَّحراء

الكبرى. وعندما جاءه الشيخ وتقدّم «بَكَّة» ورجه بالذل والزُّكون إلى الأرض أكثر من أربعين يوماً انتفض وهو يتعمد ويتحدث عن مبررات السكون والاستقرار دون أن يأتي على ذكر الجذب واليد المبتورة، الملقاة كقطعة حطب، والسَّاق المشوّهة، المتشبّية بالجذر، والألق الحفني المتلامع فوق بركة الدَّم، وطين الذئب الذي يشبه النَّواح. انتفض وكنم سرّ الألق والنَّواح والنظرة الفارعة، الفاجعة، المرفوعة إلى السَّماء.

موسكو

١٨/٤/١٩٩١م

الزعيم يتأمل الجمجمة

إعنى الرابية وراقب شعائر الغروب. حدّق في الأشعة النحاسية المطفأة فقال للشمس أن الأشياء المكابرة لا بدّ أن تنكسر، وإذا كانت الشمس نفسها تسجد يومياً وتستشهد فكيف يطمع الإنسان المعاند في الخلود؟ كان السهل يفيض بالحياة، ولكنه، اليوم، جزء من الفراغ والصّحراء والعدم. كانت القبيلة تسعى في الأرض كذّر التّمل، وها هي، الآن، تصبح من نصيب الفناء. فكيف لا يشجعه هذا الباطل على العودة إلى عقيدة التّخلّي. لو رفض النزول عند إجماع الشيوخ لتقبّل الزعامة وبقي في الصّحراء متنقلاً كالطيف، كالسراب، لما اغتمّ الآن، وجلس مهموماً يقبض الريح كما يقبض العزاف الشقي على ججمة الأميرة الزائلة. التنازل عن التّخلّي، والعودة عن احتراف العبور، هو الخطوة الأولى في الزلزل. وصراط الضلال والخطأ يبدأ، دائماً، بخدعة صغيرة. بزلّة صغيرة. والزلزل بدأ عندما تنازل ورضي بالرجوع إلى نجوع القبيلة. ولو اختار الرحيل ومضى في طريق التّخلّي لما خسرت القبيلة زعيماً كبيراً، بل ربما كسبت زعيماً يفوقه كفاءة وحكمة وصبراً، ولم يخسر هو نفسه. وقد تعلم أن الخسارة تبدأ بالتعلّق ثم تنتهي إلى التعلّد والعشق. وإذا بلغ الأمر هذا الحدّ قام الخطر، وانقضت السلسلة ذات السبعين ذراعاً، ووجد المخلوق نفسه داخل الشرك. المعتقل، قضبان الحبس. وهو يمتلك مزيّة خفية تجعل الدخول إليه ليس كالخروج منه. الدخول، دائماً، أيسر من الخروج. ويبدو أن هذه المزيّة هي خاصية تميّز كل الأشياء التي تستندرج إلى

الفريق الذي تعامل مع الجن أن اللون الأسود هو لونه المفضل. والجمجمة مهيبة بلونها الأبيض، الباهت، البكر، ليس لأنها توحي برحلة الباطل الممتدة بين قباط المهذ وقباط الفناء، ولكن لأن بياضها شعار ينطق بالتحول والحساب. الجمجمة لم تسقط بالبياض، ولم تكتسب البكارة، إلا بعد أن عبرت إلى الظلمات وعشت في الأرض، وعانت القصاص والجحيم. الجمجمة اختنقت بالضيقة، وتنفس التراب، وذقت شراسة ذرات الرمل، وعانت شرارة الديدان. الجمجمة برهان البكارة لأنها لم تخرج إلا بعد أن دفعت الكفارة وتقبلت في أحشاء الهاوية. هذه الهاوية الموحشة، الخفية، الفاجعة، هي التي يراها في الغم الفاجر، المفتوح ببلائه، وربما بشرائه، كأنها تغير الأحياء بوصية مهمة جاءت بها من الأصوات. وصية المجهول التي لا تستطيع لغة البشر إلا أن تحس بها دون أن تتمكن من النطق بها. نفس الوصية الغامضة التي سمعها من صديقه القديم الذي يسكن وحيداً في تاسيلي. قال له أن القدر سلط عليه رجلاً دينياً من الجن. كان يأتيه في الليل ويرجه بالحجارة، أو يذلق على رأسه الماء، أو يهبل عليه التراب وهو نائم. في الأيام الأولى حاول أن يرهبه بالقرآن، فواجهه بالآيات الصغيرة المليئة بالأخطاء، التي حفظها عن قفيه منجّون، ولكن الآيات لم ترهب الجنّي، وربما كان لاختطأ النطق دوراً في إبطال مفعولها السحري. هذا القتل شُنع الجنّي أن يضاعف عدوانه، فأتخذ من الهراوة سلاحاً يهاجم به فيصحو في الصباح وجسده مكسّ بالكدمات. هنا حاول الرجل أن يقنع خصمه باتي هي أحسن، فحاوّه طويلاً، وحذّره عن الخير والشرّ والمصير الذي ينتقب إليه الأشرار. أجابه الجنّي بتهقئة زلزلت جبال تاسيلي وترددت طويلاً في القمم، ثم أمطره بوبل من الحجارة.

فكر الرجل في مصابه وتصيّد السحرة والعرافين في طرق القوافل، ولكن السحرة والعرافين وعابري السبيل تأمروا مع الجنّي وسلوكوا طرقاً أخرى لا تمر عبر تاسيلي. أو ربما تدخل الجنّي اللعين نفسه ومنعهم من المرور. يش الرجل

القيد وتشدّ إلى لأرض. الأرض أقوى وأكثر كفاءة في الاستيلاء على الكائن. لأن دورها أكبر في خلق الحياة. لساء تعطي الإشارة. تبذر العلامة، والأرض هي التي تنوّي الخلق. وعلى عاتقها يقع وزر الولادة. مثل لذكور والأنثى، الرجل والمرأة. والرباط الذي يشدّ المخلوق إلى الأثني - لأم أقوى نتيجة لذلك. ولذا فإن الأرض تنفن في تقديم مغريات البقاء، والاسترخاء، والاستقرار، حتى إذا طاب للأرض المقام وجد نفسه مكبلاً بالأغلال، عاجزاً عن كسر القيد، مشدوداً إلى التراب بالسلسلة ذات السبعين ذراعاً. وهيها، انذاك، أن يحلم بالتخلي، أو يحقق العبور. لن يبقى له إلا أن يزحف على الرمل كالعبد، كفلاح الواحات، كبقية الزواحف والهوام واحشرات، إلى أن يقف فوق رأسه الفناء ويأمره بالعودة إلى الأصل، إلى رحم الظلمات، إلى التراب. يدخل إلى الأرض من الباب الذي تستقبله فيه الديدان لتجرّده من ملابحه لبشرية وتترك لجمجمة عارية، موحشة، بشعة. لقد ظلّ يسأل نفسه، منذ شاهد الجمجمة في يد العراف: ما الذي استقرّه في هذا المشهد، هل هو بياض العظم الذي يذكر بالكفن؟ هل هو الشهادة على جلال الموت وباطل المخلوق الإنساني؟ هل هو البرهان على أن الزوال هو الحالد وكل ما يحدث فوق الصحراء هو زوال وخيان وفناء؟

للبياض جلال خاص. ولا يعرف لماذا يتخذ أهس الصحراء شعاعاً مقدساً. فما أن يولد الوليد حتى يُحشّر داخل قباط ناصع، وعندما يموت يُحشّر داخل قباط ناصع أيضاً. والرحلة الممتدة بين قباط الميلاد وقباط الموت يقضيها الصحراوي محشوراً في قطعة فضفاضة من القماش الأبيض الحزين التي تذكره دائماً بالكفن. وربما رجعت عبادة الصحراوي للبياض لهذا السبب.

البياض هو لون الحداد في الصحراء.

البياض هو لون الاطيايف والأموات في الصحراء.

وقد أجمع الذين تعاملوا مع لأرواح وكل من ابتلي بالاطيايف وزيرات الموت، أن سكان الخفاء يفضلون ارتداء اللباس الأبيض، في حين أجمع

وهجج في كهف موسوم برموز الأسلاف وتساويرهم. التصاوير والرسوم هي التي أوحى له بالتميمة. نزل من الجبل ولجأ إلى السَّفْح حيث تنتشر مقابر الأولين. توشد «إدبني»^(*) ونام حتى الصباح. استيقظ بعد الشروق فعرف أنه نام بعمق لم يعرفه منذ أبني بالجنى الشرير. استمرَّ يجتمى بعظام الأجداد كل ليلة إلى أن نسي مطاردة أهل الخفاء وسافر إلى اشرق وراء الجبال. هناك زاره خصمه القديم في أول ليلة يقضيها بعيداً عن القبر وكاد يبطش به. في الصباح ترك الجبال وعاد إلى «إدبني» وجلس فوقه وشرع يضمد جراحه ويعالج الكدمات. قضى ليلته هناك فاختفى العدو.

أدرك أنه أصبح سجيناً للقبر طلما وأهل الخفاء قرروا أن ينتقموا منه إذ، اختلوا به دون أن يعرف السبب. والحصن الوحيد هو مئوى الأسلاف. ولكن المصيبة أن الصحراوي مخلوق متنقل، ولا يستطيع أن يربط نفسه بكرم من الحجارة ويتخذ ملاذاً إلا إذا قرر أن يموت. هنا اهتدى إلى حيلة. حفر القبر وأخرج الجمجمة الشاحبة ودسها في جرابه. نزل بها إلى السَّهْل وتوشدها هناك ونام ليلة هادئة أيضاً. لم ير للجنى وجهاً في تلك الليلة، فاضطرَّ أن يحملها أينما ذهب، ويتخذها تعويذة في أسفاره منذ ذلك اليوم.

فتح صديقه الجراب مرّة وأخرج له الجمجمة. تفحصها فرأى أنها أكثر جلالاً وجمالاً من كل الجماجم التي رآها. كانت مطفأة. شاحبة بلون التراب، بلون حبات الرَّمْل، أكلت الأرض أجزاء من قممتها، لحسب الدماغ وطرفاً من الفك الأيسر. ولكن يستطيع أن يعترف أن القطع التي فقدتها، من طول إحتواء الأرض لها، ضعفت هيبتها وجعلتها، ككل الأشياء القديمة والحكيمة، أكثر جلالاً وجمالاً.

موسكو

١٩٩١/٤/٢٦ م

(*) إدبني قبور الأسلاف القديمة.

أيدكران في ضيافة بني أوي

استقبله زعيم « بني آوى » في كوخ مشيد من القش . شيخ ممتنء البدن .
يميل إلى الطول . أنه مُفْلَطَح ، وشفتاه أيضاً . يعصب رأسه بخيط من جلد ابن
آوى مطرّز بحبات الخرز . حول معصمه الأيمن أيضاً سوار من جلد . قيل له
أنه لابن آوى أيضاً - موثّن بحبيبات الخرز . أمّا القلادة المهيبة التي تشدّلى من
رقبته فهي من قطع الودع . يمسك بحربة طويلة قبل لا يذكر أن رأسها
مسموم ، يتخذها الزعيم بمثابة صولجان .

حول الزعيم تحلق رؤساء العشائر وقادة الجيش . يفترشون مفارش
صُفرت من أعواد القش . حيّاه بإيماء من رأسه ثم ابتسم . أشار له أن يجلس
في مواجهته فتحنّى أحد الحاضرين وأفسح له المكان . هُزّ صولجانه المسموم في
الهواء ثلاث مرات ثم شمر عن ساعده الأيمن ثوبه الأبيض الفضفاض
وخطب الجُمع :

- ليس عاراً أن نستثمر طياع السباع . يُقال في أساطير الأسلاف أن هذا
الحيوان النبيل لا يتازل إلّا الشجعان . هل تعرفون لماذا؟ هل تظنون أنه يفعل
ذلك من باب النبل وحده؟
حدّج ايدكران وانفجرت شفتاه المقاطحتان عن ابتسامة وديّة ، ثم واصل
خطابه للجباة :

- لا تظنّوا أيضاً أنه يفعل ذلك من باب الكبرياء . إنه وصل إلى هذه
القناعة من عقيدة حكيمة تقول إن على المخلوق ألا يتنازل لمهاجرة عدوٍ إلّا إذا

رأى فيه خطراً عليه.

التفت إلى ايدكران وسأل:

«ما رأي عرّاف تينيكسو؟ هل يتحلّى السبع بهذه الأخلاق في تينيكسو

أيضاً؟

ولكنه لم ينتظر جواب ايدكران. واصل الخطاب:

«نحن أيضاً استعزنا هذا الطبع اللئيم في علاقتنا بـ«متي - متي»^(*). ولو

لم نتسلّح بهذا الشعار لأبادتنا النار من زمن. إنهم نار الصحراء. ألا يعرف

عرّاف تينيكسو أنّك نسيمهم ناراً؟

انفرجت أسنانه الناصعة عن ضحكة قصيرة وأضاف:

«إنهم أسوأ من النار، أسوأ من الشمس، ومن الظمأ، ومن الصحراء.

متي - متي هم صحراء القارة.

لُوح بحربته في الهواء، ثلاث مرات أخرى. تجوّل ببصره بين

الحاضرين. ظلّوا يراقبونه بعيون حمراء. عيون لا تنطق بالفصول ولا بالوقار

ولا بأيّ تعبير غير الاحمرار. قال الزعيم:

«ولكن أعترف أنهم نبلاء أيضاً. على المحارب الشجاع أن يعترف بخصال

العدوّ مهما كانت قاسية. وليس أفضى على محارب من أن يعترف لعدوّ

بالتفوق في خصيصة كالتبيل. لأن التحلّي بالتبيل أصعب من كسب معركة أو

الانتصار في الحرب. وقد اضطررنا بسبب شراستهم أن نؤمّن معهم عهداً

كثيراً كنّا أول من عذّر ونقضها. هذا إنمّ يجب أن نعترف به. ولكنكم كانوا

يوثّمون معنا معاهدة جديدة في كل مرة نتجنّع فيها للسلم ونطلب الصلح.

وهذا الاستعداد الدائم للمصالحة من جانبهم هو الذي جعلني أعترف لهم

بخصيلة التّبل منذ قليل. بوسع الأندال أن يسمّوا ذلك بهلاهة، ولكي أنا،

الزعيم، لا يجب أن أجاري الرّعاع في نذالتهم وأصف عدوّاً بالهلاهة لمجرّد

أنه قبل مصالحتي في زمن هزيمتي وضعني. وكانوا، في تاريخ صراعنا

الطوبى، يرقّعون المعاهدات لأهم منتصرون، وكنا نؤمّن المشاق ليس من

موقف الضعيف، ولكن من موقع الخبيث الذي يحصر أن يمتني بعدوّه

عندما يعجز عن محاربته. ولم يحدث طوال تاريخ الصراع أن بدأوا هم

بالهجوم. كنّا دائماً أول من يُغَيّر على بيوتهم وينهب قوافلهم بمجرّد أن نحسّ في

أنفسنا الكفاءة لنقيام بهذا العمل الجسور. وعندما يجتمعون شتاتهم،

ويستردون أنفاسهم ويهاجمونا إنتقاماً لنقض العهد نراجع ونطلب الغفران.

لا نطلب الغفران وحده، ولكننا نطلب توقيع صلح جديد. هذا حدّث منذ

الآلاف السنين. وأنا لم اخترع هذه السيرة، لأنني ورثتها عن أسلافي الأوّلين.

سكت طويلاً. راقب العيون الحمراء التي تحيط به في عتمة الكوخ كأنها

عيون الجن. واصل الزعيم:

«وها نحن اليوم نحسّ في أنفسنا بالكفاءة والثقة والقدرة على الهجوم

ورّد الاعتبار. نحن لا نستطيع أن نكون نبلاء مثلمهم ونلتزم بالمواثيق لسبب

بسيط هو أننا لسنا مثلمهم، طبيعتنا مخالفة لطبيعتهم. فنحن لا نتق حتى

ببعضنا، ولا نستطيع أن نعطي ظهورنا لإخوتنا وأبناء عمومتنا حتى لا تتلقى

طعنة في الظهر، فكيف نتق بـ«متي - متي» لمجرّد أنهم نبلاء؟ الغدر شعارنا.

الغدر هو الذي أبقانا على قيد الحياة في تحوم الصحراء منذ آلاف السنين. لقد

قررنا أن نستغلّ غضب الجنّ على قبائل «متي - متي» بسبب إسرافهم في اكتناز

الذهب، ومخالفة الميثاق الموقع بين هاتين القبيلتين الصحراويتين: أهل

الصحراء، وأهل الحفاه. هذه فرصة للانتقام للذّل الذي عشناه على يدي

شيخ الطريقة. وأحب أن أسمعكم بشارة ستسامهم في مذكم بالشجاعة. لقد

قبل الجنّ أن يتحالفوا معنا في عارية «واو». ووضعوا طريق الظلمات تحت

نصرتنا كي يسهّلوا لنا السبيل. فهل حلمتم بظروف أكثر ملاءمة في أي حرب

مضّت؟

توقّف الزعيم. حدّق في العيون الحمراء بعينين حمراوين.

(*) متي - متي. الإسم الذي تطلقه قبال النّوع الطوارق

وعندما التقت عيناه بعيني ايدكران ابتسم. قال كأنه يخاطبه وحده:

- إذا شئت أن نكسب الحرب فعلينا أن نتذكر نقطة ضعف العدو دائماً.
نقطة ضعف «متي - متي» في خوفهم من العار. وليس هناك عار يفوق الإجهاز
على رجل ألقى سلاحه واستسلم. إستسلموا دائماً وألقوا بالسلاح عندما
تشعرون بالخطر. ولكن لا تنسوا أن تلتقطوا أسلحتكم إذا غفل عنكم
الخصم. إذا أيقمت أنكم تستطيعون أن تتكبنوا منه بطعنة قاتلة. هذه كانت
خطة لأسلاف معهم. وأنا لا أنوي أن أخالف الخطط المقدسة حتى لا يلعني
الأسلاف في قبورهم. أم أن هناك من يرى غير ما أرى؟

لم ير أحد غير ما رأى الزعيم. ولذا لم يعلق أحد. لم يهمس أحد. لم
يوميء أحد. عاد يقول:

- لا أريد أن أضيع الأمر بين يدي صديقنا ايدكران، عَرَفَ نينبكتو،
الذي سيكون لنا دليلاً ومساعداً في لغزو، قبل أن أتقن من إجماعكم على
الخطة. ليس لاني لا أنوي أن أفرد بالفرر، وإنما لمعرفتي بأن الصوت الذي
يسكت على الشك في الميعاد سيكون نواة الهزيمة عندما تشب المعركة.

هزوا رؤوسهم بالموافقة، وارتفع من صدورهم صوت جماعي ذكر
ايدكران بحشجة ابن أوى قبل أن يهجم على الضحية.

تنبأ الزعيم لتسليم الكلمة للساحر «مامادو» كي يتحدث عن الحليف
مع الجن، ولكن حدثت، في تلك اللحظة، أمر أجبر الزعيم على تأجيل الإذن
للساحر بالكلام. لقد نهض في الصف الأيسر رجل نحيل، عاري الصدر.
يلف حول رأسه عصاة هزيلة، بائدة. عتاء صغيرتان، تدور مقلتاها في
المحجرين، تيمناً وبساراً، فلا يبدو منها سوى بياض مشوب بحمرة خفيفة.
قال:

- ليسمع في زعيم الزعماء، وحكيم الحكماء، وقائد قبائل بني آوى الجليل.
لم أكن لأتعبس على طلب الموافقة لي على الكلام لو لم أر أن مصير القبيلة

مرهون بالغزوة. لو لم أر أن التراجع عن الغزوات أفضل من القيام بها عندما
لا تستدعي المجاعة ذلك. أعني أن الرجز بالقبيلة في غزو، وخرق ميثاق مع
قبائل مجاورة، لمجرد الرغبة في الانتقام، يشكل خطراً على مصير القبيلة،
وعن مستقبلها. لقد استمعت بأشد الانتباه لخطاب الزعيم وحاولت أن أفهم
الحكمة الدهرية المكتوبة على قلوبنا في خيانة العهد، والتحلّي بالغدر، فلم
أتوصل إلا إلى نتيجة واحدة تقول إن الخطر سيظل مُعلّقاً فوق رؤوسنا وفوق
رؤوس أحفادنا وأنبجالتنا وذريتنا من بعدنا ما دمنا لا نريد أن نخالف هذا
التقليد الأحق ولو مرة واحدة في حياتنا!

سَرَتْ مهمة في الميعاد. ابتسم الزعيم بتسامح. لَوَحَ بحريته الزهية في
الهواء فعاد السكون. أوماً للخطيب أن يكمل خطابه، قال الخطيب:

- أردت أن أقول إن علينا أن نفكر ألف مرة قبل أن نقوم بعدوان نعرف
أن «متي - متي» سوف يردونه ناراً تحرق أكواختنا وأولادنا وأجبالنا اللاحقة!

تعالّت أصوات استنكار مكتوم. تيمناً الخطيب النحيل لأن يعود إلى
مجلسه، ولكن الزعيم ابتسم في وجهه واستوقفه بإيماءة من رأسه. قال بنفس
التسامح:

- قبل أن يرثي الزعيم على شيخ عشيرة «مرو - مرو» فإن الزعيم يطلب أن
تذهب وتأتي له بالماء ليبل ريقه!

رَكَعَ شيخ عشيرة «مرو - مرو» بجلال، وتحرك نوحاب الكوخ. في اللحظة
التي استدار فيها على عقبه وانحنى ليخرج تلقى الحرية المسمومة بين كتفيه.
ندت منه شهقة، ثم رفع صوته بواءً طويل، فاجبع، يشبه عواء ابن أوى.
استند إلى الكوخ وحاول أن يتطلع إلى الزعيم. درّ البياض في مقبليه، ولكن
نظرتهم ظلت غائبة. سقط في المدخل وبدأ يرتحف. علا الزبد شفتيه وفزّت
فروح قانية في وجهه بفعل السم.

أوماً الزعيم للتحذم أن يبعده. تقدّم ثلاثة رجال لا تستر عوراتهم سوى

بعض خيوط الجلد الملون. جرجروه خارج الكوخ. تكلم الزعيم بتسامح ولكن بدون حربة:

- سيلعني الأجداد في قبورهم إذا سمحت لمخلوق أن يخالف تعاليمهم حتى لو كان شيخاً في عشيرة «مرو - مرو».

التفت إلى ايدكران وسأل بوقار:

- هل يتفضل عراف تينكتو ويخبرنا بما تحته لنا انجوم؟

عندل العراف في جلسته. شدّ لثامه المزيل حول وجهه وقال رافعاً بصره إلى سقف الكوخ:

- قرأت في «ايدي»^(*) أن القدر كتب على «واو» أن تخفي. وقد عانده في ذلك نفر من الإنس، وأرادوا أن يعيشوا في الصحراء بعملة الذهب. وإذا كان الاستيلاء على الذهب قد أثار الجن، فإن فكرة إظهار «واو» من عالم الخفاء إلى دنيا الصحراء هو تمرد على إرادة الآلهة، وكفر بالقدر.

هزّ الزعيم رأسه ثلاث مرّات بذل الحربة المفقودة. ثم التفت إلى الساحر «مامادو». سأل ببرود الزعيم:

- بماذا تبشّرنا يا مامادو؟ هل عقّدت لنا العهد مع ملك الجن؟

حدّق «مامادو» في الفراغ. دفع ب صدره إلى الأسما، وتراجع برأسه إلى الوراء. بدا مهيباً بقرّة شعره المجعد الأبيض وتاج العظم المحاط برأسه. قال بوضوح يبدو شاذاً في لغة السحرة:

- ملك الجن يبارك التحالف ويضمن لكم النصر بشرط واحد.

سكت. لم يقاطعه أحد. لم يستفسر حتى الزعيم حول الشرط. أضاف مواصلاً مراقبة الفراغ:

(*) ايدي. حصة تعرف بالكلب (بلغة الطوارق).

- الشرط يخص الغنائم. ملك الجن يقول إنه لن يدخل معكم في الحلف إذا سؤلت لكم نفوس السوء المساس بالكنوز. الذهب من نصيب الجن، ومن حقكم أن تنصرفوا في لسبايا وبقية الغنائم.

أجاب الزعيم عن الجميع:

- يستطيع الساحر «مامادو» أن ينقل موافقتنا إلى حلالة الملك. وقُلْ له أن الثبر لو كان يستطيع أن يخلق «واو» أو يزل بها من السماء، أو فلنضل الخفاء، لما وصل إلى أيدي التجار السدين خالفوا به العهد وأرادوا أن يتخذوه عملة للحياة

دمق الجمع بنظرة شاملة وأعلن بكبرياء الزعيم:

- نحن لا نريد إلاّ الإنتقام. الإنتقام هو غنيمتنا الأولى.

ولكن العراف حدّره من موقعه في الفراغ:

- ملك الجن يقول إن الإنتقام يحوّل الانتقام، وإذا بدأت اللعبة لوحشية فلن تنتهي إلاّ إذا اندثر أحد الطرفين.

حججه الزعيم:

- قلّ لملك الجن أن هذه شريعة البشر. شريعة الصحراء. شريعة الحياة. ما طعم الحياة إذا لم يذق فيها الإنسان شهد الانتقام. قلّ له أيّ رأيي للجن لأنهم لا يعرفون معنى الانتقام.

هزّ الساحر رأسه وابتسم للفراغ. ابتسامة كئيبة صغيرة. غامضة.

في الصباح بدأ الاستعداد للغزو.

موسكو

١٩٩١/٤/٢٧

العبور

(١)

لا أحد يعرف حدود الضياع. لا أحد يعرف حدود هذا القدر لا في الزمان ولا في المكان. متى تمّ الخروج من «واو»؟ متى انفصل الصحراوي عن المنبت، عن الأصل؟ أين بدأت مسيرة الشقاء؟ أين تبدأ القارة الجغرافية المسماة صحراء؟ أين تنتهي حدود العراء؟

حلّ النسيان ففقد الطريد الذاكرة. كان بإمكان لعنة النسيان أن تتحوّل إلى رحمة تنقذ الصحراوي من شقاء الحنين وعذاب المنفى، ولكنها أصبحت نقمة إذ أصابت الجسد وأخطأت الرّوح. فقد الصّحراوي، بفقدان ذاكرة البدن، طريق العودة إلى «واو»، ولكنه لم ينسَ كما أراد له الجسد الأزل، فتضايع الشقاء. الرّوح تبحث، تفتش، تطلب الأصل، والجدّ تائه، بطيء، بليد، ضيّع السبيل إلى الأصل.

الضياع الأول أنجب أكثر من ضياع. ضاع أنبيى ففقد الصحراوي دليلاً آخر إلى الحياة. كانت «واو» دليله إلى السّماء، وأنبيى دليله إلى الأرض والحياة والنّاس. وعندما أضاع الكتاب أصبح الطريق إلى الأرض مقطوعاً أيضاً. أصبح الوجود نفسه ضائعاً. وجود الصّحراوي في الصّحراء وجود ضائع من البداية وإلى الأبد. الصّحراء نفسها قارة معزولة، ضائعة عن الكون. الصّحراء تائهة منذ الأزل. ويجمع العارفون أنها لن تهتدي إلى الأصل أبداً.

الضباع قَدَّر الصَّحراء نفسها فكيف لا يكون قدر الصَّحراوي؟

(٢)

جاء درويش الطريقة القادرية إلى الصَّحراء، وروَّجوا للضباع. شيدوا الزوايا في الواحات وكتبوا على جدرانها بالخطِّ الكوفي: «مَنْ لم يفقد لم يجد، ولا يجد إلا مَنْ فقد»، أو «الحقيقة في الفقد». أو هذه العبارة الخفية: «الفقد سرُّ الوجود». أو عبارة أخرى أفسى: «الفقد طريق إلى الحق». أو عبارة أخرى أشدَّ غموضاً: «لا خير في إمرة لم يذق طعم الفقد». ولم يفت أهل الصَّحراء أن يستنطقوا شيوخ الطريقة. تحدَّث شيخ الزاوية إلى الزعيم فقال: «ليس وجدنا جذباً أو عشقاً للحال. ولكنه فرح بالثور على الكثر الفقيد. الإنسان ينفق العمر طلباً لنفسه الضائعة فإن وجدها جذب ورقص فرحاً. ولم يكن يستطيع أن يجدها ما لم يفقدها. لا يتوجد شيء أبداً ما لم يضع يوماً. فكيف لا تفرح إذا وجدت نفسك؟ كيف لا ترقص إذ وجدت الله؟». ولكن الجواب لم يَمُرق الحجاب، ولم يفتح ثغرة في جدار النسيان. ظلَّ الزعيم يهيم في الفلوات، يسائل العابرين، ويستنطق الجنَّ.

حاور فقيهاً جوالاً.

وجد الفقيه مبرراً للطنن في كفاءة شيوخ الطريقة وحل على الدرويش: «إذا أردتم، يا أهل الصَّحراء، أن تعرفوا الطريق فابتعدوا عن الطريقة، إلى متى تستمرون في الإصغاء لرنادقة يَمُرقون صدورهم بالسكاكين ويَدعون أنهم رأوا الله؟. والله لن تخرجوا من الظلمات ما دمتم تجاورون البدع وتجاورون أهل لظن والزندقة». ثمَّ طلب أجراً على الفتوى قبل أن يجيب على سؤال الضباع. تناول حفنة من التراب ورماها في وجه الزعيم. قال: «لقد أردت أن تعرف الأصل. فإليك جوابي». ثم ضحك ببلالة وأضاف: «لا أصل غير التراب. منه جئنا وإلىه نعود. فكفوا، يا أهل الصَّحراء، عن البكاء، وتوقفوا عن طلب الأصل. الاجتهاد إذا زاد عن حدِّه انقلب إلى زندقة!». ركب ناقته وسافر إلى المجهول.

ولكن الزعيم لم يمل إلى الفقهاء يوماً. وكان لا يخفي تعاطفه مع الدراويش في صراعهم مع فقهاء الواحات. ويذكر أن الدراويش انزوا في الزوايا عندما هجم الفقهاء واحتلوا الجوامع. تبعهم أهل الباديات الذين استسلموا للنسيان. في حين ظلَّ أهل الحنين على علاقاتهم السرية برسل السرِّ. لأنهم رأوا دليلاً أن حقيقة باقية في الخفاء، والله أبلَّ أن يكون سرّاً.

(٣)

في «كانو» قابل عرافاً مهيماً ما زال على دين المجوس. طلب منه العراف قطعة الطرونة(*) قبل أن يجيبه على السؤال. قضم من الجوهره ومضغ التبغ ثم بصق اللعاب. تمايل متمشياً قبل أن يجيب: «لن تجد الطريق إلى «واو» دون أن تستعيد الذاكرة تماماً. في صحرائكم شجرة واحدة تستطيع أن تخرجك من ظلمات النسيان: آسايار! إنها آسايار! هل تعرف آسايار؟. هل تعرف ماذا يفعل هذا الثبات؟ إنه يثبتك وبينك من جديد حياً. يجعلك تولد مرّتين. ابحث عن آسايار إذا أردت أن تستعيد ذاكرتك وتجد طريقك إلى الهك». وعندما حدَّث عرافاً من تينيكو عن النبتة السرية ضحك العراف حتى دمعت عيناه ثم أخبره أن آسايار إنشدر منذ آلاف السنين، والأمل في العثور عليه استحالة منذ زمن بعيد. ولكنه اقترح وهمس في أذنه بالسرِّ: «يُروى أن راعياً عثر عليه منذ أعوام فاطعم به غنمه ظناً منه أنه حلفاء. في الصباح لم يجد القطيع». حدَّته بنظرة خفية فسأل الزعيم: «ولكن أين يمكن أن يخفي القطيع؟ إذا لم تهاجم ذئب فإن العراء لا يتلعب القطيعان». قال العراف وهو يحدجه بنفس الغموض: «هذا ما أظنه أيضاً. ولكن الرعاة اجتمعوا أن الماعز تحوّل إلى مخلوقات. والمخلوقات انتقلت إلى الخفاء. آثرت أن تسكن مع الجنَّ». سأل الزعيم: «ما فائدة العثور على آسايار إذا كان سينقلني إلى

(*) الطرونة: نوع من الملاح التي تُستعمل ككلمة لتعريض المضع.

الخفاء؟ أنا أريد الحقيقة وليس الخفاء». ابتسم العُرف ونطق بالمفاجأة: «الحقيقة هناك، في الخفاء. القطيع انتقل إلى الخفاء لأنه عرف الحقيقة. كل مَنْ عرف الحقيقة يفضل الانتقال إلى الخفاء». هنا سأل الزعيم: «هل يروق للناس أن يقيموا في الخفاء لأنهم عرفوا الحقيقة؟». ردُّ العُرف بهجة صارمة: «وهل شككت في ذلك يوماً؟».

(٤)

تلقَّى الجواب على يد حكيم من الجن.

خرج من الحيادة مع بداية الصيف في ذلك العام.

فاز بربيع سخيَّ شَمال الجبال الزرق ونزح بهجاء إلى تادارات لقضاء الصيف. ترك القطيع يرتع، في وديان تبعثر في ضفافها أشجار الخلفاء، وصعد إلى المرتفعات. تفقَّد الكهوف، وتقلَّ بين القمم السماوية. في مساء اليوم الثالث وجد نفسه في ضيافة القبيلة السَّخِيَّة. استيقظ من إغفاءة القيلولة مع العشيَّة فوجد الوادي يفيض بالقوافل: تصايح الرِّجال. تباكى الأطفال. تنادت النساء. وتعالى نغاء الماعز مختلطاً برغي الإبل. رفع رأسه فرأى أكثر من خباء وقد انتصب في حضيض الجبل. على ضفَّة الوادي، اشتعلت النيران، وارتفعت ذيول الدخان. أقبل نحوه فريق من الشيوخ فتهض لاستقبالهم. صافحوه بوقار النبلاء وجلسوا في مدخل المغارة. أوقد النار وريداً بعد الشاي. أخرج لهم طبقاً من التمر ولكنهم لم يأكلوا. لم يستفهموا عن الكلاء، ولم يأتوا على سيرة المطر. وجد حرجاً في أن يسألهم عن قبيلتهم أو وجهتهم.

عندما شربوا الدُّور الأوَّل بدأ الحوار.

سمع أحدهم يقول:

- البدن مشدود إلى الأرض بألف وتدٍ، والروح تريد أن تطير، وتلحق بالأصل.

قال أكبرهم سنّاً وأشدَّهم وقاراً:

- الصَّحراوي ولدودريشاً من بطن أمه. بهيم في الخلاء الخالي، ويضرب صدره بقبضته باكيّاً: «مَنْ أنا؟ من أين جئت؟ ولماذا أدبُ على قدمين بدل أن أطير بجناحين؟ لماذا جئت؟ ما غاييتي في الصَّحراء؟ ألم يكن أجمل لو كنت ضوئاً أو نسمة أو قطرة مطر؟ ماذا يمكن أن تفقده الصَّحراء لو لم أخلو؟ أليس أيسر للجميع لو لم تر الصَّحراء وجهي من البداية؟ أليس أفضل لو لم أوجد؟». ولا يكتفي الصَّحراوي بالسؤال، ولكنه يسرع لأوَّل عاسر كي يستحلفه أن يخبره مَنْ هو. ومن أين جاء. ولماذا جاء. ويستنطقه عن رأيه فيما لو لم يتوجد. أليس هذا المخلوق درويشاً بالطبيعة؟

ساد صمت.

في الحضيض استمرَّ أهرَجُ.

التفت أحدهم نحوه وسأله فجأة:

- هل تبحث عن «واو»؟ قيل لي أنك تبحث عن الأصل أيضاً.

همَّ بأن يردَّ: «مَنْ في الصَّحراء لا يبحث عن «واو»؟ مَنْ في هذا الكوكب الضائع لا يبحث عن الأصل؟»، ولكنه لاحظ كيف أسكت الشيخ الجليل الرِّجل بنظرة صارمة. تلهَّى بخلط الشاي فقال الشيخ الجليل:

- هناك مَنْ يجزم أن الحين في العبور، والمسافر هارب من محاربة الغول في نفسه. ولكنني أرى أن لا وجود لـ «واو» إلا في التنقُّل والهجرة. أنت قرين نفسك ما ظللت عابراً، فَإِنْ توقفت تجاوزتكَ وتبعدت عنك.

سكت لحظة. التفت نحوه كأن الخطاب موجه إليه وحده:

- لا يتعلَّ غول الضياع إلاَّ العبور. ولا يخفف من وجع السؤال إلاَّ لسفر. فسافراً! إنَّك أن تتخلَّى عن السُّفْرا إذا لم تجد «واو» في نفسك، في سفرك، فلن تجدَها في أي مكان.

في تلك الليلة استضافوه في منتجعهم وأطعموه بصنوف أطعمة لم يذُق لها طعماً أبداً. وفي الصّباح، عندما نهض وتفقّد الحضيض، لم يعثر لهم على أي أثر. لم يجد أثراً لا لنيران البارحة، ولا لروث لقطعان، ولا أثر الأقدام. تذكّر أهل الخفاء فابتسم بغموض.

ولكنه لم يمس تلك التّميمة التي تلقّاها من حكيم الجرنّ.
كانت تميمة الحياة.

سرّ التّبر

(١)

في الأيام الأولى لاستيلاء شيخ الطريقة على القبيلة قال لها أحد المريدين: «لن يهنا لشيوخنا بال حتى يقضي على كل إشارة إنتمت إلى الماضي». فهمت الإمامة يومها، ولكن لم يفتها أن تردّ على الوعيد بلغة من خبر مزاج الدهر وعرف غدر الزمان: «هذه حكمة الله في خلق. لا يهنا بال لسلطان حتى يمحو آخر كلمة وردت في كتاب السلطنة». استغزى المريد باللغة الدهرية فسأل باستفزاز مضاد: «هل تتحدث العرافة المجوسية لغة الله؟». فردت بنفس البرود: «ومعنى كانت لغة الألهة حكراً على مخلوق؟». قال المريد: «أراك تتحدثين عن شيخ الطريقة كأنه سلطان من السلاطين، وليس رسولاً للحق والصراط المستقيم». قالت: «كل من رضي أن يتولى أمر قوم فهو سلطان حتى لو ادّعى النبوة». سكت المريد فواصلت طريقها إلى المرحى. وعندما استدعاهما الشيخ للحوار بعد أيام لم تُفاجأ. ذهبت لزيارته بعد الغروب فوجدته مطوّقاً بحلقة من المريدين. صرّفهم بلإمضاء من رأسه وجلس بجوار النار، يغذّيها بالخطب ويستعدّ لتحضير الشاي. توقعت أن يبدأ بالتلميح من أبعد زاوية على عادة الحكماء والمعمرين، ولكنه فاجأها فدخل من أقرب باب: السّحر رجس من عمل المجوس والشياطين، وقراءة الغيب تدخّل في شؤون الخالق الذي لا يعلم الغيب سواه. أم أني أخطأت؟

ابتنست، فمهمت أن الشيخ لا ينتمي إلى فئة الحكماء، ولكنه يؤثر المباغنة بما يجعله جديرًا للفوز بلقب «معاوب». قالت:

- كلاً. سيّدنا الشيخ لم يخطئ، ولكن سيّدنا يعلم أيضاً أنه ينير البصيرة لمن شاء، ويرفع الحجاب في وجه من أراد، ويكشف الطريق للأخيار. أنا لا أشك في أن شيخ الطريقة القادرية هو أول من يعلمنا أن القدرة هي التي تجعل من أدن العباد أختياراً، وأضعف خلقه أولياء. أم أن المعرفة أخطأت في العبرة كما أخطأت قبلها في امتهان علم الإنشادة؟

ابتنست لشيخ أيضاً. عبث بلحيته لحظات. إقتحم النار بالسعر. أبين أن المعرفة خصم من فريق محض ضد الضرب المباغت فصمّ أن يناور:

- يوسف شيخ الدنيا والذين ألا يخطئ المعرفة المجوسية، ولكن يسرّه أن يراها وهي تتكلّم لغة الله وتحتكم إلى القدرة للمحاجة والبرهنة. أوافقك أن السرّ في القدرة ولكن لست أنا من رجّهم بالكذب حتى ولو صدقتم.

- أنا لا أتحدّث عن رأي الشرع، ولكن أتحدّث مع شيخ الطريقة القادرية الذي يرى الله في كل حضرة.

رمقته من تحت اللحاف ثم واصلت:

- أستطيع أن أعترف أن ثقّي في مخلوق تبيّى له الخالق أكبر من ثقّي في الشرع. لأن لمخلوق الذي من الله عليه بالرؤية هو من فئة الأخيار التي ستفهم معنى أن تسبح دمعاً فرّت من عين شقيقه، أو توقف النزيف في قلب أصيب بالفجعية، أو تنزل العزاء في صدر فاض به الحزن.

هنا قاطعها الشيخ:

هذا لا يفرّه الأخيار، ولا يؤيدك فيه أهل الكُشف. فالعزاء خديعة، وإيقاف النزيف في لقب المنجوع أكذوبة. أعترف أننا نختلف مع السّنة

وأهل الطاهر في معالجة نوائب الدّهر، ونحتكم إلى لغة أخرى في قراءة دستور الحياة، ولكننا لا نتعامل بالأكاذيب لسبب بسيط وهو أننا نؤمن بالقدر.

- وهل يتعارض القدر مع الرحمة يا فضيلة الشيخ؟

- لا أفهم ماذا يمكن أن تعنيه الرحمة هنا، ولكن أعرف شيئاً واحداً وهو أن الشفاء إذا اختار مخلوقاً فما على المخلوق إلا الإبحار في الألم، لأن القدر هو الذي شاء أن يكون شفاء في الألم. الأدبان تجمع أن الخلاص في الكفارة...

كان قد بدأ يخلط الشاي. ويبدو أنه تذكر أمرأ خارقاً عندما توثّف عن الخلط فجأة وصح:

- ولكن النظري. ألا تريد أن تقولي إن مهنتك عمل أرضي ولا علاقة لها بالآلهة؟

استنكرت المعرفة:

- أن أنزل بالحرفة من النجوم، وأصبح جراح الخلق على الأرض أمر لا يجعني أقطع صلي بالسلاوات، كما لا أظن أن نمة مهنة تستطيع أن تزرع الرحمة بين النّاس دون أن تكون وطيدة في صيلاها بالسّاء.

- الحق أن رسم الأحجية برمز الجنّ عمل لا يفرّه شرع السّنة ولا يستطيع شيخ الطريقة القادرية أن يتساهل معه مهما تحقّق بالتسامح والحلم.

استماتت في الدفاع:

- الفقهاء أيضاً يكتبون الأحجية ويرسمون التعاويذ.

- ما يشفع للفقهاء هو القرآن. تعاويذ الفقهاء بلغة الله، وتماثلكم مرمرزة بلغة الجنّ وأشباه الجنّ.

- ما ضرّها أن تكتب بلغة أهل الخفاء إذا كان فيها شفاء للنّاس؟

- لا شفاء إلّا في الشقاء. ألم تنق منذ قليل أن لا وجود للطهارة بدون عذاب؟ اعلمي أننا خُلِقْنَا للشقاء والحياة ليست رحلة فرح.

- ما ضرّها لو كانت رحلة فرح؟

- أنا لا أتدخل في المشيئة، والتفكير أبعد مما يجب شقاء آخر.

- حاولت أن أهوّن من شقاء المخلوق الصّحراوي.

- لن يهون من شقاء المخلوق سوى الفناء. الخلاص في الزوال.

- ما ضرّ لو عاش المخلوق سعيداً قبل أن يبلغ لباب وتستعيده «واو»؟

- أتيت تتدخلين كثيراً في المشيئة. التدخل في شؤون القدر جريمة كل عرّاف.

قدّم لها الشاي وعاء من خشب. مال نحوها بجسمه وتفحصها باستفزاز. ظلّ يحدّق في وجهها كأنه اكتشف وجودها لأول مرة. سحب اللحاف الأسود حول وجهها وتناولت رشفة من الشاي. استمرّ الشيخ يحدّق حتى قال:

- أنصحك أن تلزمي الخباء منذ اليوم!

استمرت ترتشف الشاي ببرود. لم يفضح وجهها أي تعبير ينم عن دهشتها بالحكم. أضاف الشيخ:

- إذا خرجت إلى العراء فلن أضمن سلامتك من استفزاز المريدین.

أعادت إليه الوعاء وقالت بهدوء:

- يدعيني أن يحكم بالحس من جاء يدعو لدين الحرية.

إعتدل الشيخ في جسته. همز النار بالمسعر. قال باقتضاب:

- الحس قدر المخلوق منذ أن حشره الله في البدن.

- هذه لغة الطريقة. هيهات للمعجوز البائسة تسيطر أن تفهم لغة أهل الكشّاف.

- أردت أن أقول إنني لست من ابتدع المعتقل. ولكنّي أحاول أن أحاكي

ذي الجلال كما يخلق بكل مخلوق.

- إذا كان الله قد خلق الإنسان في المعتقل فلنّ تركه طليقاً في كوكب اسمه الصّحراء.

- ما فائدة أن يتسكّع في الكوكب الصّحراوي إذا كان عشوراً في فقص؟

- أنت تعرف أن المخلوق لن يكون مخلوقاً ما لم يمّش في كوز الطين.

البدن برهان على وجود المخلوق كما ترى.

- لا أرى للنسجين خلاصاً إلّا يوم يتكسر القيد، ويتحطّم كوز الطين وتتحرق شعلة النور من ظلمات البدن وتخرج إلى النور السّواهي.

- ها أنت تعود إلى لغة أهل الكشّاف مرة أخرى.

- الحس قدر الإنسان.

- ألن توافقني بأن الصّحراء هي بديل هذا الحبس؟

- أبداً. لن يبدّل حبس البدن إلّا الفناء.

سكنت العرّافة. همدت النار في الموقد فنزلت الظلمات. في المضارب البعيدة ارتفع صوت بأغنية شجنية قديمة. قالت العرّافة:

- حَبَّتْكَ من عشاق الصّحراء.

أجاب الشيخ بعد صمت طويل:

- لا أنكر أن فيها سرّ الفناء. ولكن هل أستطيع أن أعشقها ما دمت لا أرى فيها ما يراه العابرون؟ هل أستطيع أن أعشقها ما دمت لا أرى فيها الخلاص البديل لحبس البدن؟

عبث بأحشاء النار فتوهّج الجمر. عدّل وعاء الشاي وردّد:

- الصّحراء. الصّحراء. إنها كالحياة: وهم. سراب يعد بالماء، ولكنه لا يقود إلّا إلى الفناء. والعابر وحده عرف السرّ. العابرون جديرون بالبطولة لأنهم الوحيدون الذين عرفوا السرّ وصمّموا أن يمّشوا وراء السراب إلى النهاية

ويضعوا لكائده حذراً. إحتفروا الحياة وحولوا الخلاء إلى قنطرة يعبرون منها إلى «واو»، إلى الفناء. لقد رفضوا أن يتلقوا منب الإحسان. رفضوا أن يتفألوا غزاء العبيد وذهبوا إلى القدر في ملكوته كي ينفقوا على حقيقة الأمر بأنفسهم. اليس العابرون أبطالاً؟

العرافة لم تحب. في المضارب البعيدة نطقت الأغنية الشجنية بالاغتراب والفجعية.

(٢)

لا يعرف أحد كيف استطاعت «تيميظ» أن تتحمل حس الصحره. ولكن لم يرها أحد خارج خساثها منذ ذلك اليوم. وروي أن شيخ الطريقة منعها من الخروج حتى لقضاء حاجتها، وأوقف عدداً من العبيد يقومون على خدمتها. يأتون لها بالمؤن والماء، ويتولون تطهير الحياء من الفضلات كما تفعل الأمهات مع أطفالهن الرضع. وكما يحدث دائماً عندما يكتبب الزمان ويغيب في وجه الإنسان فإن الأكثرية تتنكر له ويجد انتعاطف والوفاء من فئة لم يتوقع منها الوفاء. تنكرت لها الصديقات، وامتنعت عن زيارتها الجارات، ولكنها تلقت العطايا من نساء لم ينل منها سوى المكابرة والإحتقار. فعرفت أن العرافة أيضاً تجهل طبيعة البشر، كما لم تؤث من العلم بالفوس إلا قليلاً. فكان على تيميظ الحكيمه (التي تعيش في العزخ ولا ترى سوى العيب) أن تشكر الزمان على كآبته وتقلبه. لأن لا شيء في الصحراء، وفي الحياة، يجعل المخلوق يعرف نفسه ويعرف معدن الجار مثل هذه النعمة الإلهية التي يسلمها العوام: غدر الزمان. ولا تستطيع أن تنسى كيف جاءها خصمها القديم الدرويش موسى حاملاً عطية من الفطائر المدهونة بالسمن. جلس في مدخل الجبأ ورات كيف نفع فمه، تحت شعاع الضحى، بخيط طويل من اللعاب. سمعته يومها يتكلم بلغة المجاز:

- جئت لأسمع العرافة شيئاً أظن أنها سمعته من معلمها في كاسو وتينيكسو.

مسح اللعاب كعنه وحدجها بعينه الحولاء قل أن يضيف:

- إنها حكمة عرفتها الصحره بفضل أجدادي الذئاب. فهم وحدهم يملأون الخلاء ضحكاً وفرحاً عندما ينزل عليهم المصاب ويعانون الجوع. ويُقال إن الفقهقات ونوبات الضحك تستمر معهم ما استمر الجوع. ولكن لا تظني أنهم يسخرون من القدر وهم يتلون من الضحك، ولكنهم يفعلون ذلك لأنهم الوجدون في الصحره الذين فهموا حكمته وعرفوا أنه لا يرمي المخلوق بالجوع إلا ليلهيهِ قليلاً حتى يفرغ من إعداد مفاجاته الكبرى.

اعتدل في جلسته وملاً راحته بالتراب وراح يذروه في الهواء كما يفعل الأطفال ثم واصل حديثه عن مفاجآت القدر:

- هل تعرفين هذه المفاجأة؟ لا شك أنك تعرفين. إنها الوليمة. القدر لا يرمي الذئاب بالجوع إلا إذا اشغل في إعداد الوليمة الكبرى. القدر لا يرمي أحداً بالمصيبة إلا إذا أراد أن يعد له الفوز. هل تفهمين؟

ولكنه لم ينتظر جواباً. ملا راحته اليسرى أيضاً بالتراب وتركه ينساب بين أصابعه كاضاء. أضاف:

وأنت تعرفين أنه يروق له أن يعكس الآية أيضاً. وبشاء الحظ، أو القدر نفسه، أن يكون أجدادي الذئاب هم أول من فهم سر الآية المعكوسة. فقد من عليهم بالرخاء حتى شبعوا فاسترخوا. وكان ثمن الاسترخاء كسلاً وهواً وغفلة. وأنت تعرفين معنى الغفلة في لغة الدراويش.

سكت. انحنى فوق التراب حتى كاد أن يقبله. استمر جاثياً على كوم الرملة:

- المخطئة دالماً في الغفلة. والغفلة بنت الاسترخاء. والاسترخاء ابن الرخاء. فهل تتوقعين شيئاً آخر غير القصاص؟ هل تستطيع الذئاب المسكينة أن تحب غير المجاعة والهلاك؟ فعلتمت أن تبكي وتملأ الصحره عويلاً منذ

ذلك اليوم. عَزَفَتْ لعبة القدر الحَفِيَّة. تَعَلَّمْتُ أَنَّهُ يَرِيدُ أَنْ يَنْزِلَ عَلَى رَأْسِهَا
الْجِزَاءَ إِذَا تَسَمَّيْتُ عَلَى الْأَرْضِ بِالرُّخَاءِ. وَبِالْعَكْسِ؛ إِذَا عَبَسَ، فَإِنَّهُ
يَبْعَثُ لَهَا بِالْمَجَاعَةِ. إِنَّهُ يَرِيدُ خَيْراً إِذَا فَعَلَ شَرّاً، وَيُرِيدُ شَرّاً إِذَا فَعَلَ خَيْراً.
فَلْتَعَلِّمِ الْعَرَّافَةَ أَنْ تَقْرَأَ آيَاتِ الْقَدَرِ مَقْلُوبَةً.

قِيلَ إِنَّ الْعَرَّافَةَ قَفَزَتْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ وَقُبِّلَتْ قَدَمِي الدَّرَوِيشَ. وَهِيَ رَوَايَةٌ
تَنَاقَلُهَا الْخُدَمُ، وَتَنْتَقِلُ فِي النَّجْعِ طَوِيلًا، وَلَكِنْ لَمْ يَصْدُقْهَا أَحَدٌ مِنَ الْبَلَاءِ
لَمَجْرَدِ أَنْ شَهِدَ قُبْلَةَ التَّوْبَةِ كَانُوا مِنَ الْخُدَمِ الزَّوْجِ.

هَؤُلَاءِ الْخُدَمُ هُمُ الدِّينِ رَوَا أَيْضًا أَنَّ الْعَرَّافَةَ تَمِيطُ تَمُوتُ بِعِبَارَةٍ
وَاحِدَةٍ وَهِيَ تَمَسِّحُ دُمُوعَهَا فَقَالَتْ:

حَسْبُكَ عَدُوِّي، فَاعْفُرْ!

فَاجَابَهَا الدَّرَوِيشُ بِلُغَةِ الدَّرَاوِيشِ:

أَنَا لَا أَعَادِي إِلَّا مَنْ عَادَى نَفْسَهُ.

يَبْدُو أَنَّ تَمِيطُ لَمْ تَنْتَقِطْ الْإِشَارَةَ فِي ذُرْوَةِ انْفِعَالِهَا فَتَفُوتُ بِعِبَارَةٍ مُسْتَعَارَةٍ
مِنْ لُغَةِ الْبُرُوجِ:

مَا أَجْهَلَ الْإِنْسَانَ إِذْ يَحْسِبُ عَدُوَّهُ صَدِيقًا، وَصَدِيقَهُ عَدُوًّا!

وَرَوَى الدِّهَادَةُ أَنَّ الدَّرَوِيشَ هُوَ الَّذِي أَوْحَى لَهَا أَنْ تَبْعَثَ إِلَى مَعْلَمِهَا
الْأَوَّلِ فِي كَانُو تَتْلُو الصَّرْحَةَ الرَّهْبِيَّةَ الَّتِي اسْتَعَارَتْهَا مِنَ الْأَسَاطِيرِ وَكَانَتْ سَبَبًا
فِي الْفُضَاءِ عَلَى شَيْخِ الطَّرِيقَةِ وَوَضَعَتْ انْتِهَاءَ لِسُلْطَانِهِ عَلَى الصَّحَرَاءِ.

(٣)

عِنْدَمَا نَهَشَتْ الْغِيْرَةَ قَسْبَ الضَّرْبَةِ، وَلَمْ تَعُدْ تَحْتَمِلْ أَنْ تَسْتَمِرَّ «تَانَسُ» فِي
الْإِسْتِيلَاءِ عَلَى مَخْدَعِ الْأَمِيرِ وَقَلْبِهِ، فَاحْتَكَمَتْ إِلَى الْمَكِيدَةِ. انْتَهَزَتْ فُرْصَةً
غَابَتْ فِيهَا «تَانَسُ»، فَصَمَّمَتْ أَنْ تَبْدَأَ الْإِنْتِقَامَ مِنْ شَقِيْقِهَا الْمَدْلُلِّ

«أَطْلَانْطُسُ». تَنَكَّرَتْ فِي لِبَاسِ «تَانَسِ» فَطَلَبَتْ مِنَ الْأَمِيرِ أَنْ يَخْلُصَهَا مِنْ
«أَطْلَانْطُسِ» وَيَأْمُرَ رَجَالَهُ بِنَحْرِهِ. دُهِشَ الْأَمِيرُ، كَمَا دُهِشَتْ كُلُّ الْخَاشِيَةِ. أَنْ
تَتَنَكَّرَ الْأَخْتُ لِأَخِيْهَا الْمَحْبُوبِ فَتَأْمُرَ بِنَحْرِهِ بَعْدَ أَنْ أَقْطَعْتَ مِنْ فِخْذِهَا قِطْعَةً
لَحْمٍ يَوْمًا وَافْتَدَتْهَا بِهَا حَتَّى لَا تَنْحَرَهُ الشَّقِيْقَاتُ الْجَانَنَاتُ. وَلَكِنْ الضَّرْبَةُ
الشَّرِيْرَةُ، الْمُنْتَكِرَةُ فِي ثِيَابِ «تَانَسِ» قَالَتْ لَهَا تَعَبْتَ مِنْ مَزَاجِ الْأَخِ الْمَدْلُوكِ وَلَنْ
تَتَرَجَّعَ عَنْ قَرَارِهَا فِي التَّخْلُصِ مِنْهُ. تَمَيَّأَ الْوَجَلُ لِنَتْفِيزِ الْعِقَابِ، مَطْلَبُ
أَطْلَانْطُسِ أَنْ يَلْبِثُوا لَهُ رَغْبَةً آخِرَةً فَأَمْهَلُوهُ. إِعْتَلَّ الْوَابِيَةُ وَصَرَخَ فِي الْخَلَاءِ:
«تَانَسُ، يَا تَانَسُ، هَا هُوَ أَخُوكَ الْحَبِيبُ يُسَاقُ إِلَى الْمَذْبَحِ». فَسَمِعَ النَّاسُ
اسْتِجَابَةَ اللَّئِيَاءِ. إِذْ هَفَّتْ تَانَسُ فِي مَعْتَقِلِهَا بِالْوَادِي الْبَعِيدِ: «أَطْلَانْطُسُ، يَا
أَطْلَانْطُسُ، مَاذَا تَسْتَطِيعُ تَانَسُ أَنْ تَفْعَلَ لِإِنْقَازِ حَبِيبِهَا أَطْلَانْطُسِ إِذَا كَانَ
شَعْرُ رَأْسِهَا مَشْدُودًا إِلَى جَذَعِ الطَّلْعِ، وَجِسْمُهَا يَرْقُدُ تَحْتَ صَخْرَةٍ. هَرَّعْ
الْأَمِيرَ بِرَجَالِهِ وَأَنْقِذْ تَانَسَ، ثُمَّ سَلِّمْهَا الضَّرْبَةَ الشَّرِيْرَةَ لِتَفْعَلَ بِهَا مَا تَشَاءُ،
فَأَنْتِ بِجَمْلَيْنِ يَقُوْدُهُمَا مَجْنُونَانِ. شَدَّتْ رَجُلًا إِلَى جَهْلِ، وَالرَّجُلُ الْآخَرُ إِلَى
الْجَمَلِ الْآخَرِ، وَسَارَ الْمَجْنُونَانِ وَرَاءَ جَمْلِيْهَا فَتَمَزَّقَتْ الضَّرْبَةُ إِلَى نِصْفَيْنِ. ثُمَّ
قَطَّعَتْ تَانَسُ لَحْمَهَا وَوَضَعَتْهُ فِي قُدْرٍ يَبْعَثُ بِهِ هَدِيَّةً إِلَى أُمِّ الضَّرْبَةِ الشَّرِيْرَةِ**».

بِهَذِهِ الصَّرْحَةِ الرَّهْبِيَّةِ الَّتِي أَطْلَقَهَا أَطْلَانْطُسُ الْيَتِيمُ وَأَنْقَذَتْهُ مِنَ الْمَوْتِ
بَعَثَتْ الْعَرَّافَةَ إِلَى مَعْلَمِهَا فِي كَانُو. وَيُقَالُ لَهَا كَتَبَتْ النِّدَاءَ الْفَاجِعَ بِـ«تَيْفِينَاغ»
عَلَى رَقْعَةٍ مِنْ جِلْدِ الْغَزَالِ، وَسَلِّمَتْهَا لِرَجُلِ الْقَوَائِلِ الْمُتَجَهِّينِ إِلَى كَانُو.
بَعْدَ شُهُورٍ تَلَقَّتِ الرُّؤْيَا.

لَمْ يَبْعَثْ لَهَا الْعَرَّافُ الذَّاهِيَةَ رَدًّا مَكْتُوبًا بِـ«تَيْفِينَاغ» عَلَى رَقْعَةٍ مِنْ جِلْدِ
النَّعَابَيْنِ، وَلَمْ يَرْسِلْ وَصِيَّةَ شَفِيعَةٍ مَنْطُوقَةً بِلُغَةِ «أَهْوَسَا» وَلَمْ يَلْجَأْ لِأَيِّ رِمَزٍ مِنَ
الرَّمُوزِ الَّتِي اشتهرَ بِهَا سَحَرَةُ تِلْكَ الْبِلَادِ الْخَفِيَّةِ الَّتِي تَعَدُّ فِيهَا الْإِشَارَةُ لُغَةً
يَوْمِيَّةً لِلتَّعَامُلِ بَيْنَ النَّاسِ. وَلَكِنْ الْعَرَّافُ الْمَجُوسِيُّ الرَّهْبِيُّ أَرْسَلَ لِنَتْلِيْزَتِهِ
صَنْدُوقًا صَغِيرًا مِنْ خَشَبِ الْأُونُسِ، مَزَخَرَفًا بِالْمَنْمِنَاتِ وَالْأَشْيَاحِ، مَلْفُوفًا فِي
(*) مَقْطَعٌ مِنَ اسْطُورَةِ اطَّرَافِ الْمُحَمِّدِيَّةِ «تَانَسُ وَأَطْلَانْطُسُ».

لسجّانها حبلاً، فإن هذا الحبل لا بدّ أن يتحوّل في الليل إلى ثعبان يلتف حول العنق.

مضت شهور أخرى فخرج شيخ الطريقة للغزو. في «تينوكالين» تحوّل الحبل إلى ثعبان فأباد جنود المجهول جيشه، وقطعوا رأسه، واستعادوا الصندوق الخفي المنمنم بصور الجنّ.

(٥)

صندوق الجنّ لم يكن شركاً لشيخ الطريقة وحده، ولكن تيميط التي فكّت إشارة معلمها القديم ما لبثت أن وقعت في نفس الفخ. لقد اعتمد داهية «كانو» على فراستها في قراءة الرّموز السحرية، ولكنه نسي أن يرفق بالصندوق إشارة أخرى تحذّرها من الشر، وترجم لها معناه في معجم كهنة الأدغال. نسي المعلم أن تلميذته التي تنقلت في الصحراء ورافقت القوافل، وعاشرت التجار، قد تطلّعت بأخلاق التجارة، فغابت عنها التعاليم، ونست الخطر الذي حذّر منه دستور السحر دائماً.

جرّبت تيميط مفعول الشر قبلها النّصر وصمّمت أن تستولي على المسحوق السّري لتستخدمه كسلاح في وجه أعدائها الكثيرين.

ولكن التراب الشيطاني تسلل إلى قلبها دون أن تدري. لم تقدّر موهبة الهباء في التلّون والحدّاد فامتلكها بدل أن تمتلكه. سحرها بدل أن تسخره. بدأت تكتسب منه مثوراً ومسبوكةً فعاد العداء بينها وبين الدرويش يشتعل أشرس مما مضى.

لم تدر تيميط متى زلّت. لم تدر العرّافة الحكيمة أنها خانت حكمتها ومهنتها. لم تدّر أن بصيرتها أصيبت بالهباء. لم تدّر أن الغيب تنكّر لها. لم تدّر حتى انقلب سحرها عليها ووجدت، ذات ليلة مشؤومة، يدبّة الإمام في نحرها.

بيرن - جنيف

بين ١٠ و١٦/٦/١٩٩١م

خرقة بالية من القماش. فتحت تيميط الصندوق فلمس جوفه بالهباء السّري، بالذّرات اللعوبة. بالمعدن الخفي. بحلم يقطع اخنق وراءه الكوكب الصحرأوي. يولدون من مطون أمهاتهم كي يمتنوا الجري وراءه، فيقتلون في سبيله، يُغني بعضهم بعضاً. يضحون بأنفس عطية، بالوهج، بالثعلبة الأولى، بالحياة، كي يحصلوا عليه. يهربون من الله كي يسجدوا له. ينسون آيات الحياة (الماء، الهواء، الصحراء) ويقايضونها مقابل حفنة وحيدة منه. يقايضون الله نفسه مقابل الغبار لسري. لغبار اللعوب، كالسّراب، اللّماع كالسّراب، المخادع كالسّراب. فيحوّل رحلة الحياة من فردوس للتمتعة والصفاء إلى جحيم وسبق وشقاء. هذا هو التّبر. هذا هو غاية الرّجال وأمل النساء. هذا هو إبليس الصحراء الذي يبني المدن ويصنع العجائب إذا حضر. هذا هو إبليس الصحراء الذي يهدّد المدن ويحوّل لأرض إلى خراب إذا غاب. فأي سرّ فيث أيها التراب الأصفر غير الدمز والغمز؟ أي سرّ يجعل التراب المأخوذ من التراب يأخذ الإنسان من نفسه ويمحو عقله وينسيه ربّه ويجعله يذهب وراءه إلى العدم طائعاً؟ أي سرّ في هباء أصفر يعمي الأولياء ويركع السلاطين؟ أي سرّ في التبر؟ أي سرّ في إبليس؟ أم أنك، يا تير، أقوى من إبليس؟

(٤)

ليلتها لمن تنم العرّافة. جلست تخاطب البروج وتقرأ في كتاب النجوم طوال الليل. وعندما شقّ القيس العذري الأفق، وفصل بدن السماء عن جسد الصحراء ابتسمت تيميط بغموض. توسّدت ذراعها ونامت دون أن تقتل ابتسامة الغموض على شفتيها.

انتهت من فكّ رموز الخطاب، وبعد أيّام بدأت في تنفيذ الوصيّة: لفّت الصندوق، المنمنم بالجنّ، في نفس الخرقة البالية، وبعتت به إلى شيخ الطريقة.

ويروى أن سعادة الشيخ بالصندوق جعلته يحمله معه في كل غزواته. ولم يُعرف حتى اليوم كيف فاتته أن العرّافة الصحراويّة السجينة إذا أهدت

الشبح

(١)

تبدى له في الجسد أول مرة عندما وقف يخاطب رجلاً باراً اشتهر بالفضيلة قيل إنه ينتمي بأصله إلى سلالة الأشراف. جاء مزاراً بالنجع في طريقه إلى الحج، فخرج بشيعه ويؤن عليه وحشة الصحراء مؤدياً فريضة قديمة ورثها عن الأسلاف. كان يظهر فوق رأس الرجل الوقور، مثل ساهور القمر، عقب كل جملة يتلفظ بها الضيف ليردد وراءه عبارته القاطعة: «لا تصدقه!». في المرة الأولى تُحِيل للزعيم أنه يتوهم. وفي المرة الثانية ظن أنه شبح من صنع الأرق وطول السهر. وفي المرة الثالثة أيقن أنه نفر من قبائل الجن. بسمل وقرأ آية الكرسي سراً. ودّع الضيف وعاد إلى النجع. زحفت عتمة المساء على الصحراء. قطع مسافة قصيرة فوجده يمشي بجواره ويتسم ابتسامة غامضة وخبيثة. يرتدي عمامة سرداء. يلف يديه وراء ظهره كأنه يحاكيه ويتعمد أن يستفزه. حرر يديه وأسرع في خطوه. وجد الشبح يحزر يديه أيضاً ويصرول بجواره. بسمل مرة أخرى وتوقف. التفت إليه وفي عينيه غضب ووعيد. ولكن الشبح لم يتراجع. واجهه بابتسامة غامضة. صاح الزعيم بغضب مكنوم:

- مَنْ أَنْتَ؟

لم يجب. ازدادت الابتسامة في عينيه غموضاً. هتف الزعيم:

- هل أنت ينس أم جان؟

هنا أطلق الغريم تلك الهاهمة المشبوهة التي تذكرها آده طويلاً:

- هيء - هيء - هيء - هيء - هيء.

لم يزد على الهاهمة المكتومة حرفاً واحداً. تفهقر حتى ابتلعته عتمة الغروب. ولكن الزعيم لم ينس نفيه القاطع لأراء الرجل الفاضل بالعبرة الوقحة: «لا تصدقها!».

(٢)

مضت سنوات ولم يظهر. نساء الزعيم كما نسي الموقف مع الرجل الفاضل. ولكن الصحراء لا تعرف الصدفة، ولا تنسى التفاصيل، وتنسج الحياة بخيوط خطة خفية. نزل الزعيم في أحد أسفاره واحة مرزق، فوجد الأهالي يتسلون بسيرة الفضيحة. قالوا إن رجلاً من الأعيان إتهمته ابنته بمعاشرتها فتراً منها وحكم عليها القاضي بأن ترحم حتى الموت عقاباً لها على أذعائها الفاحش. تحول في السوق حتى العشيّة. ثم ذهب لزيارة صديق قديم رافقه منذ سنوات في رحلات القوافل إلى أغاديس وتينكتو. وجده يتقرص عند جدار البيت. يحضر شاي العشيّة ويعارك أسراب الذباب. عانقه ورُحب به طويلاً قبل أن يبدأ الرواية ويتسلّ بسرد الفضيحة. هُشّ الذباب بمروحة السعف قبل أن يقول:

- ذهبت البنت إلى بيت القاضي، واشتكت إليه من المُنكر.

أصاب ذبابة كبيرة بكفّه، ومروح على الجمر ينسج السعف. واصل:

- هل تدري ماذا قالت الفتاة للقاضي في تلك العشيّة المشؤومة؟

إنشغل الزعيم بمسابقة شبح السراب وهو يتسكّع في الأحراش ويدبّر مكيدة لإشعال الحريق في النخل. لم تفصح عيناه فضولاً فأصيب محدثه بخيبة أمل. ولكن الحية لم تنمعه من الاستمرار:

- قالت للقاضي أن أباه اغتصبها بالقوة قبل أن ينقضي على زواجها شهر

واحد.

رمقه الزعيم بإستنكار فدخل التاجر في التفاصيل:

- كدّتها القاضي فأقسمت بالألانة والملائكة وكتب السياء. جاءها بالمصحف فأقسمت على كتاب الله أمام جمع من الشهود والعقلاء. تدخل أهل الحكمة وأقنعوها بأن مصير أبيها سيكون الرجم بالحجارة إذا لم تتراجع عن التهمة القظيعة التي رمت بها. فهل تعرف ماذا حدث؟

إشتعل حماس التاجر فنسي أن يبحث عن الفضول في عيني ضيفه. لمعت عيناه بريق وهو يقول:

- تراجعني الفتاة المسكينة، ولكن الأب لم يتراجع. سحبت إتهامها وأفادت في المجمع أنها رمته بالباطل. هنا قام الأب ولعنبا أمام الجميع. تبرا منها فالتخذ القاضي قراراً برجمها حتى الموت عقاباً لها على التهمة الفضيحة. بارك بجمع العقلاء قرار الرجم، وصدّقوا على العقوبة لقطع الكفر وتطهير الواحة من الأصل الكريه..

مسح العرق عن جبينه. تمتم منكس الرأس:

- سيجري تنفيذ الحكم عشية الغد. ليلة الجمعة.

(٣)

في الطريق لحضور شاعرا القصاص تحدث التاجر بالسّر:

- لا أخفي عليك. الفتاة المسكينة على حق!

خدّجته الزعيم بنظرة استهزاء فأوضح الصديق:

- منذ عام جاءني الفتاة مرعوبة وقالت لي أنها على استعداد لأن تتزوجني إذا هربت بها من الواحة برفقة القوافل. فاجاني الإقتراف فسألته عن السبب الذي يجعلها تعرض الزواج على رجل يكبرها بخمسة وعشرين عاماً وهي الصبيّة البكر التي تتمتع بالجمال وبالسمة الطيبة وبالانساب إلى سلالة الأشراف. فقالت إن أباه يريد أن يكبرها على الزواج من شيخ سكير ومزواج

دفع له مالاً وفيراً ثمناً لها. ولكني لم أصدقها. قلت لها أن تمهلني يومين لأفكر. وعندما عادت في المرة الثانية ساعدتني بحريتي في التجارة في أن أحبرها على الإعراف بالحقيقة. هل تدري ماذا قلت؟

إنحني على قدمه وأصلح من وضع النعل في رجله. عدل عبته حول منكبه وأجاب عن السؤال:

- قالت إن الزواج برجل مثلي لن يغضب الله. ولكن الاستسلام لجنون أبيها منكر كبير لن تغفره لنفسها، ولن يغفره الله لها. وهي تنوي الحرب حتى تنجو من الإثم وتتجني الولاد من كبرى الكيثر. نعم. قالت إنها تفعل ذلك حرصاً عليه من شيطان الشهوة، وإنقاذاً له من لعنة الله. ولكن رفضت العرض.

صرخ الزعيم بسؤال قاطع:

- لماذا؟

أجاب التاجر بانكسار:

- لا أدري. ربما لأنني لم أتصور أن يحدث ما حدث. لم أتحيل أن بإمكان رجل فاضل مثل الشيخ السردوك أن يقترب الجرم...

قاطعه الزعيم:

- هل قلت الشيخ السردوك؟

استفهم التاجر:

- هل تعرفه؟

- هل هو من الأشراف؟

أجاب التاجر بلا تردد:

- من أشراف زويلة فهل تعرفه؟

سكت الزعيم. تكلم بعد مسافة:

- لقد حذرتك ومنتجدت بك فخذلتها. وما هو مجلس العقلاء بأمر برجها.

- ليس هذا ما يؤلني. ما يؤلني هو أنني الوحيد الذي يملك المبرر والبرهان على تصديقها. عندما إتهمت والدها بجريمته لم يصدقها أحد لا من الأعيان ولا من عامة الأهالي. وقد أجبرها المجلس على أن تتراجع مستغلاً حرصها على دفع الأذى عن أبيها. وعندما فعلت قبلوا المدينة إلى نحرها وقرروا أن يقيموا عليها الحد. الفتاة مخلوق نبيل وبريء.

- كان ينبغي أن تتدخل. لماذا لا تتدخل؟

- أخشى أن يكون الأوان قد فات.

- أنت شريك في التشكيل بمخلوق بريء. تركتم الأثم الكبير وأنزلتم العقاب في صحبته المسكينة فأين العدالة؟

- لا توجد عدالة. أيقنت أن العدالة انقطعت من الأرض، وربما لم توجد في يوم من الأيام.

- كنت قادراً على إنقاذها. إذهب إلى القاضي واعترف بالحقيقة.

قال التاجر بعد صمت طويل:

- أخشى أن يكون الأوان قد فات. لن يصدقني أحد. شهادة فرد لوحده لا تلغي حكماً أقره جميع العقلاء. هذه شريعة الواحة.

- سبحانه الله. هذه شريعة الواحة وليست شريعة السباء.

أجاب رفيقه بخيبة:

- شريعة الواحة أقوى من شريعة السباء.

كرّر العبارة مرتين قبل أن يسكت. إحتسب بالصمت طوال المسافة الباقية.

(٤)

عبراً حقولاً بائسة. اجتازا أحراش النخيل. خرجا إلى العراء. انكسرت

الشمس نحو مشاها اليومي ولكنها لم تتخّن عن غطرتها. استمرت تبعث النار في أشعتها المكابرة.

غرب الواحة امتد سهل رملي فسيح. في نهاية السهل ارتفعت قامة المرتفعات الرملية التي تتوالد وتتواصل في صحراء «مسك ملت». في الطرف الشرقي لاحظ الزعيم حشدًا من النساء. على مسافة خطوات تجتمع الصبيان يهتّون حاراً عملاً بأثقال. في الطرف المقابل، أقصى الغرب، وقفت كوكبة مهية من الأعيان. بجوارهم تجتمع خليط من الرجال. في المسافة الفاصلة بين التجمعين الشرقي والغربي تكاثرت العماقة حول الضحية الشقية. كان شعرها الفاحم الطويل مشدوداً إلى عمودين طويلين. يدها معقودتان إلى الوراء بحبل شرس من مسد. أمسك ماردان بالعمود الأيمن، وأمسك الماردان الآخران بطرف العمود الأيسر.

إقترب الزعيم، مع رفيقه، من الموقع. رأى الحسناء عن قرب. كانت فاتنة. طويلة. تميل إلى الإمتلاء. ترتدي قفطاناً باهتاً واسع الأكمام يبرز العجيزتين والنهدين النافرين. أنفها مكابرة، والفتتان مكتنزتان. و... عيناها عيناها كبيرتان، كحلوان كعيني غزالة برّية. التقط الزعيم فيهما نفس التعبير الذي رآه دائماً في عيون الغزلان: الحزن والغموض. نعم. في عينيها حزن وغموض وسكينة. يستطيع أن يفهم الحزن، وكذلك الغموض، ولكن من أين جاءت العيان بالسكينة في مثل هذه اللحظة الحساسة؟ تذكر أن عيون الغزلان أيضاً تنطق بهذه السكينة الخفية عندما تقترب المذبة من نحرها. عين الفتاة الآن على المذبة أيضاً.

انحرفا يساراً، ولكنها لم ينضبا لتجتمع الأعيان. توقفا على بعد خطوات من خليط الدماء.

بدأت الشعائر فجأة.

ارتفعت راية بيضاء فوق رؤوس الأعيان. لوّح بها رجل بلدين. يبدو من

هذه المسافة في العقد اخماس. يتدّثر بعباءة باهتة كثيفة لا تتناسب مع فصل الصيف. قال النّاجر:

- إنّه لقاضي يعطي إشارة البدء.

إندفع الصبيان وتحاطفوا قطع الحجارة من جوال مبيّت على ظهر الحمار. هرعوا إلى المسافة الوسطى. بدأوا يرشقون الفتاة بالحجارة. بعد لحظات تصاعد هتاف من خليط الدماء. تراكض الرعاع وهم يتصايحون كأنهم يهرون للمقاة الغزاة. مروا بجوارهما فرأى الزعيم جنوناً في عيون البعض، ولعاباً يسيل من أفواه الكثيرين. توقّفوا في المواجهة وأمطروا الفتاة بالحجارة. ولكن الفتاة لم تعرهم اهتماماً.

كانت تنصب بقامتها المكابرة. تراقب ملكوت الأفق الصحراوي حيث مدّ السراب لساناً لعوباً غامضاً. اللسان الخالد الذي يخاطب العابرين. يقول للرجل بلغة الصحراء والمجهول: «تعال وسأخذك إلى الخلاص. تعال معي إلى «واو». هناك سيخفي الشر ولن تتعذب بعد اليوم أبداً». في أذنيها غنى رسول آخر لحنة السماوي. لم تسمع وعيد الرعاع، ولا ضجيج الصبيان، ولا سبب الحاقدين المتعطلين لإنزال الأذى. سمعت أغنية السكون الصحراوي. إرتفع الموال الإلهي الذي لا يسمعه إلا الموعودون بالفردوس والعزلة والخلاص. موال فاجع ولكنه إلهي. وربما إلهي لأنه فاجع. لن يكون أي شيء إلهياً إذا لم يكن فاجعاً. المقدّس دائماً حزين وفاجع. الحزيم دائماً كئيب. الحزن باب الجنة. الفجيعة طريق الفردوس والخلاص الأبدي. استمرّ أجسد ينزف بالدم، واستمرّ السكون يتغنى بألوان الإلهي الفاجع، المقدّس. استشرس الرعاع وازداد جنون الدماء الوحوش برؤية الدم. الوحوش تستشرس عندما تشتم رائحة الدم. إزداد حماس القتل فارتفعت نبرة الموال. إزدادت النبرة عمقاً، وحزناً، وجمالاً. ما أجمل المواويل الإلهية. على النغم رققت الحواريات بأجسام من ضوء. بغللات منسوجة أيضاً من

تقدّم المُرْدَةُ وغطّوا الجسد بلحافٍ ناصع. شرب من الدم فتخلّفته بقع قسائية. بدأت الجماهير تتفرّق وتنصرف. في طريق العودة تقابل آده مع السردوك الذي لم يره منذ شيعه في طريقه إلى مكّة منذ سنوات. عيّياً لمناقشته ولكنه "حجم فجأة". تذكر حديث التاجر عندما قال إن أب الفتاة اسمه السردوك أيضاً. فهل يعقل أن يكون السردوك الرجل الفاضل الذي يستمد "صولة من الأشراف وحشاً يحاول الإعتداء على شرف إبنته، ثم يرمي بها للهمج كي يرميها أمامه؟ صافحه السردوك بوجه شاحب. طأطأ رأسه وهمهم بكلام غير مفهوم قبل أن ينصرف.

إنلفت الزعيم إلى صديقه التاجر. في نظرته امتزجت الدهشة بالاستنكار. تكلم بغضب:

- هل تصدّق أنّي أعرف هذا الرّجل؟ هل تصدّق أنّه شريف وفاضل ويذهب إلى بيت الله كل عام؟ هل تصدّق أنّ شيعته منذ سنتين في طريقه إلى مكّة للمرّة الواحدة والعشرين؟ أنا لا أفهم. اخن أي لا أفهم. عندما حدثتني عنه ظننت أنك تعني سرودكا آخر. أنا لا أصدق. . .
وقف حائر. أسدل التاجر طرف العمامة على وجهه وأخفى ضحكة. وجد الزعيم نفسه يركض خلف الرجل. إعترض طريقه فتوقّف السردوك. كان الزعيم يلهث. غمغم:

- ظننتك شريفاً، يا سرودك النّحس!

قال الرجل بسكينة مدهشة:

- ولا تنابزوا بالألقاب!

ولكن آده إعترض:

- لا تحكّم إلى القرآن. لن تحدّثني بعد اليوم. أنت شريف مزيف. كم

ضوء. بدأت أجسام الضوء تتبدّى في الضوء. عرفت أنّها قطعت شوطاً طويلاً في الطريق إلى داوود. ابتسمت. فهاجّت الجموع بالاستنكار والفزع. صاح أكثر من صوت:

- إنظروا! إنها تبتسم. إنها شيطان. ألم نقل إنّها إبليس الرّجيم؟ إبليس. طهروا الواحة! إقتلوا إبليس!

انهالت الحجارة على الجسد المكابر المغسول بالدم. ولكن القامة ظلّت منتصبه، تنزّو إلى الأفق الصحراوي الرّجيم. الأفق يلوّج بالوعد. بالأمل. بالسراب. والسكون المقدّس يعزف الحانته الإلهيّة الشّجيّة. فترقص الحوريات في غلالات الضّوء. قطعت مشواراً طويلاً في طريق الخلاص.

ولكن كيف عادت الحورية المكابرة من رحلة الفردوس لتتقضّ على مخلوق بالئس مثل التاجر؟

ما لاحظته لجميع أنّها ظلّت تبتسم طوال الطقوس الوحشيّة. الزعيم أيضاً تابع إبتسامتها الخفيّة بذهول. . . وكلما ازدادت وحشيّة الرّعاع في الرّجيم كلما اتسعت إبتسامتها وعلل شفتيها الاستخفاف. وفجأة تمردت. إختفت إبتسامته التسامح وقفز في عينيها الحقد. إنزعت رأسها من جلادها المُرْدَةُ فتبقت خصللات من شعرها ممدودة إلى طرف العمود الوحشي. نرّ الذم من رأسه أيضاً. إعترضها لهج ولكنها أفلتت من أيديهم. وثبت في ففزات هائلة وهجمت على التاجر. صرّخته على الأرض وخنقته بسدين دامتيتين. مرّقت احجارة ثوبها عن جسدها فتدلى ثديا الريان. تجمهر الهمج فوقها وانزعجوا من رقية التاجر الشّقي. استعان بالزعيم ليقيف على قدنيه. رأى ثيابه الملوّنة بدم الضحية فأصابه الفزع.

أمّا الفتاة فاستسلمت للسكون الخفي، ورحلت مع الموال الإلهي إلى الخلاص.

شريفاً مزيقاً في الصحراء يا تُرى؟ كم شيطاناً في الصحراء يتسرّ بالقرآن؟ كم فاجراً يلبس ثياب الأشراف؟

تتم السردوك:

- أنت تظلمني ..

استنكر آذَه:

- أظلمك؟ تعتدي على ابنتي وتقول إنني أظلمك؟

- هذا افتراء. نالت الجزء على فريتها. ولعنة الله حلت عليها منذ إفترت

على أبيها. .. إنها ليست ابنتي. ..

قطعه الزعيم:

- إنتفضر. لا تحاول أن تخدعي كما خدعت الأعيان وجمّع الدماء. أملك

البرهان الذي لا يأتيه الباطل. قمت بالإعتداء عليها، وعندما أجبرها الأعيان

الدهاء على التراجع وأخبروها بما ينتظرك جزء فعلنك القبيح سحبت الإتهام

إشفاقاً عليّ انتهزت الفرصة كأي وغد وتبرأت منها. سلمتها للهيم حزاء

إنقاذها لرفقتك. ولكن انتظر. سوف أقسط رقتك بسبي. أقسم أني

سأضرب رقتك. ..

استجد الرجل بالمارة:

- إشهدو يا جماعة الخير. هذا الرجل يهدّني بالقتل. رجن لا أعرفه ولم

أره في حياتي يهدّني بالقتل. إشهدوا يا جماعة. ..

تجمّع الفضوليون العائدون من مراسم الرجم. دافع آذَه عن نفسه:

- هذا الرنديق خدعني. زارني في الصحراء مراراً في طريقه إلى مكّة.

إدعى أنه رجل فاضل ينتمي إلى سلالة الأشراف. ولكن. .. ولكنه اعتدى

على استه ولديّ الدليل الذي لا يأتيه الباطل. ..

تقاطر المزيد من الفضوليّين. كَبُرَت الزحمة. تحلّق حولها الدماء. صاح

أحد للفضوليّين:

- عن أي دليلٍ تحدّث؟ أين الدليل؟

التفت الرّزعيم إلى صديقه بحث عن التاجر. قُتس بين الجمع.

إختفى التاجر طار رقيقه. تبدّد الشاهد الوحيد. ولكن متى انسحب؟ أين

يمكن أن يفتني؟ لقد سار بحواره طوال الطريق. وقف إلى جاسه طوال

الوقت. فمتى تلاشي؟ متى استغفله؟

تساءل بذهول:

- أين الزرقان؟ ألم ير أحدكم موسى الزرقان؟

سأله رجل بدين:

- عن أي زرقان تحدّث؟

أوضح الرّزعيم:

- موسى الزرقان. من أشهر تجار مرزق. صديقي موسى الزرقان.

ضحك البدين. ضحك السردوك أيضاً. جلبلج الجمع بالضحكات.

توقّف الرجل البدين عن الضحك. قال باستغزاز:

- هل أنت معنوه؟ كيف تجرؤ على إتهام الخلق بالباطل وتشتهد

بالأموات؟

صيح الرّزعيم العرق. غغمم بالسؤال:

- بالأموات؟

أجاب الرّجل البدين؟

- نعم. بالأموات. لقد توفي موسى الزرقان منذ ثلاث سنوات مطعوناً

بحربة مسمومة في كائنه.

هتف آذَه:

- ولكنّه جناسي في بيته. شربنا الشاي، ورافقني إلى الرجم. لقد

هجمت عليه الفتاة أمامكم. ألم تروا الفتاة المسكية وهي تهجم عليه وتخنقه

بيديها؟

علّت ضحكات الجمع. صاح أكثر من صوت:

- إنّه معنوه. ممسوس. سموا بإسم الله الرحمن الرحيم.

بسم أكثر من صوت. مال الرجز البدين على السردوك. همس في إذنه بكلام. ضحكاً على أثره وانصرفا. انصرف الجمع نحو الأحراش.

وجد نفسه يقف وحيداً في الخلاء.
قُبِلَت الشمس الأفق، وركعت تؤدّي شعائر الصلاة.

(٦)

ذهب إلى بيت الزرقان.

عندما وصل قطعت العنمة مشواراً في زحفها على لواحة. على بيت الزرقان أيضاً نزلت العنمة. في الشمال، ناحية القلعة العثمانية، سمع كلباً ينبج.

بدا البيت لطيفي كثيراً، وحيداً، موحشاً. كأنه مهجور حقاً. يحاور أحراش النخيل. ويبعد عن البيوت الطيفية الأخرى مسافة لا تقل عن ثلاثمائة خطوة. در حول البيت. تفقد الجدار الشرقي فوجد رماد العشيّة مغموراً بكموم الرمل. جلستهما في العشيّة لم تكن وهماً. هنا إحتسب الشاي مع صديقه القديم فكيف تجاسر الدهم وشككوا في قواه العقلية؟ أزاح كوم لرمال وتحسّن الرماد. كان بارداً. لا يهم. المهم وجود الرماد. وجود آثار النار أعاد له لثقة في قواه العقلية. ولكن أين ذهب الزرقان؟ وهل صحيح أنه مات منذ ثلاث سنوات مقتولاً؟ إذا كان إدعاء الأوغاد صحيحاً فكيف جالسه وخالطه وشاركه الفرجة على الطقوس الوحشية المشؤومة؟ لقد تعرّض أمامهم لإعتداء الضحية قصاصاً له على جنبه ورفضه الزواج منها. لقد إنترعوه من بين يديه بأنفسهم فكيف عادوا وأنكروا بعدما احتفى؟ أم أنهم خطفوه وقتلوه خشية أن يفشي السر، ثم إدّعوا أنه مات مقتولاً بحربة مسمومة منذ ثلاث سنوات؟ تخلفوا منه كشاهد وحيد. كلهم شركاء في الجريمة الوحشة كلها شتركت في قس المسكينة. الوحشة كلها بجرمة. وهما هي تختطف الزرقان وتدّعي أنه مات لتشكّكه في قواه العقلية.

في الجوار، من حية الأحراش، إنطلقت هاهنا مشبوبة. هاهنا طوبية، مكتومة. نفس الهاهنا القديمة التي سمعها من الشبح اللعين. التفت نحو الأحراش. سكنت الجناب فجأة. تحيل له أنه سمع هسيساً في دغس لنخل. ولكنه لم يصر أحداً. اشتدّت العنمة فحجبت الرؤية. بعد لحظات أتى الصوت واضحاً:

«لأ أقل لك: «لا تصدّقه».

التفت ناحية الصوت فلم ير أحداً. أحسّ بقشعريرة. تحسّن مقبض السيف. هتف:

«من؟»

سمع الهاهنا رداً على السؤال. عاد يسأل بمقبض:

«هل أنت الشبح؟»

لا جواب. صاح مرة أخرى:

«هل تنزأ بي؟ أخرج إن كنت رجلاً.

ردّ الصوت في الظلمة:

«هيء - هيء - هيء - هيء - هيء.

هده الزعيم:

«هل هذا وقت المزاح؟ لماذا لا تظهر إن كنت رجلاً.

«هيء - هيء - هيء - هيء - هيء.

«حسناً. لقد صدّقتك. الرجل لم يكن شريفاً ولا فاضلاً. الرجل مزيف

حقاً، بل ومجرم أيضاً. أنت على حق. إنه مجرم. ماذا أردت أن تقول بذلك؟

هل أردت أن تتبخر غشامتي؟ حسناً. أنا غشيم. أنا أعترف بأنّي غشيم.

أم... أم أنك..

سكت الزعيم. كان يلهث ويداعب مقبض السيف ويتدفق بالكلام.

وجد نفسه يخاطب الظلمات فأحسّ بالخوف والحجل فتوقّف فجأة. ولكنه

سمع الصوت في الأحراش:

- لقد اردتكَ ألا تصدِّقَ أحدًا. لا تصدِّقَ أبداً... هيء - هيء - هيء.

احجج للزعيم:

- كيف تريدني ألا أصدِّقَ أحدًا؟ هل أعيش بين الناس ولا أصدِّقَ الناس؟ ألا ترى أن هذا سلوك مستحيل؟ لا يستطيع أن يعيش بين البشر من فقد الثقة في البشر. هذه حكمة تعلَّمتها من الأسلاف.

- وهل تطيق الحياة في الرِّيف؟

- هل تريدني أن أعزِّل؟

- أردتكَ أن تحتكم إلى قاضٍ أقوى من العقل الذي تنساهي به. حسابات لعقل تخطيء، ولكن قلبك هو دليلك لكشف الرِّيف.

مسح العرق بكم جلسابه. استمرَّ يداعب مقبض السِّيف. تقدَّم نحو الأحرار خضوة. حاطب الظلمات:

- أعرف آني لن أفوز في رهان مع شبح. ولكن أجبي عن سؤال واحد: هل رافقتني اليوم إلى الشعائر الوحشية؟

- لا أنكر الحضور؟

- ألم تر الزرقان إلى جوارِي؟

- هذا لا يعني.

- هل مات الزرقان حقاً؟

- هيء - هيء - هيء - هيء - هيء.

- أجبي!

...

سكت الشَّبح. يَتعمد الزعيم الأرض. عادت الجنادب تغني في الأحرار. ترتع. وضع سيفه في حجره. أحسَّ بإعياه. أسند ظهره إلى جدار البيت المهجور واغفا.

(٧)

في الصباح صمَّم أن يلجأ للفقيه.

حدَّته بقصَّته مع الشَّبح منذ ظهوره لأوَّل مرَّة حتى لعبته الأخيرة. صمت الفقيه طويلاً ثمَّ نهض وأغرقه في عاصفة من بخور كبريه الرَّائحة. ظلَّ يتمتم بالآيات حتى تعب. جلس ودل:

- صاحبك هو الوسواس.

- الوسواس؟

- ... الذي يوسوس في صدور الناس. إبليس الرجيم.

تغم الزعيم:

- لعنه الله. ولكن..

قاطعه. لفقيه:

- وقد تركته يتمكَّن منك زمناً طويلاً. طرَّده في الوقت الحاضر أصعب من أي وقت مضى. لقد رأيت بنفسك كيف نهَّأ لك في شخص صديقك الزرقان.

وجد الزعيم نفسه يسأل:

- ولكن هل مات الزرقان حقاً؟

حدَّق فيه الفقيه بدهشة. ثمَّ هزَّ رأسه مؤبَّناً. طأطأ آذنه خجلاً فاقترح الفقيه:

- سنبدأ الحرب في ليلة الغد.

- الحرب؟

- وهل طمعت في أن تفوز بالنجاة من الشيطان بدون حرب؟

سكت الزعيم فواصل الفقيه:

- لا أخفي عليك؟ هذا يتطلب مالاً كثيراً.

- كم تريد؟

- ثلاث عشرة ناقة.

ردّ الزعيم باستنكار وتحسّس مقبض السيف:

- ثلاث عشرة ناقة؟

قال الفقيه ببرود الدهاء:

- وهل تريد الخلاص من الشيطان الرجيم بشمّ بخس؟

اضطرّ أن يقبل الصفقة.

(٨)

خرج من الواحة بثلاثة أحجية مختلفة الأحجام. طواها بعناية، ودسّها في جلد غزال. علّقها في خيط من الجلد المفتول وصنع منه نواة لقلادة جليمة. وضعها في رقبته وعاد إلى القبيلة.

تدفّق الزّمان..

صاحب هذا الفيض الخالد تبدّلات كثيرة. هبّ القبلي ونقل إلى الصحراء الوسطى مزيّداً من الرمال مصمّماً أن ينفذ نيّته القديمة في إقامة بحر الرمال العظيم. قعقت الرّعود فوق قمم الجبال الزّرق فسكت في وديان الحمادة سيولاً كثيرة. عانت صحاري الجنوب من الجذب، وتراجع الماء في آبار أخرى.

حُفرت قبور كثيرة، فأوى إليها صحراويون من مختلف الأعبار. أطفال ورجال. نساء وعجائز. رُضِعَ ومعمّرون، فقدم الفناء برهانه الخالد الذي لا يفرّق بين صغير وكبير، رجل أو امرأة، طفل رضيع أو معمر تجاوز المائة.

تدفّق الزّمان.. فكانت الحياة حاضرة أيضاً. فبكى لأطفال فزعاً وهم ينزلون من حُبس الأمّهات إلى حُبس الحياة الدنيا، كما بكى من قبلهم أولئك الذين ذهبوا إلى حُبس لأرض والزوال. أقيمت بُنية ونُصبت خيم في المتنجعات بعدد المقابر التي حُفرت. بل زد عدد المواليد عن حالات الوفيات فبعث قدر الصحراء رسوله الوباء ليصبح المعدلة ويعدّل الميزان.

تدفّق الزّمان..

وتدفّق معه في الصحراء الباحثون عن الكوز واللّه «واو». حاء إلى الصحراء مدّعوا الزهد والعفة وشيوخ الطرق الزيّفون.

جاء إلى القبيلة شيوخ الطريقة القادرية، وآلّى على نفسه أن يمرّر القبيلة من هرطقات المجوس ويقودها في صراط الحرية وإخلاص.

فبأي عقل يستطيع الزعيم أدّه أن يفهم نوابه؟ أي عقل يستطيع أن يميّز الأصل من المزيف؟ أي قوّة تستطيع أن ترى الخيط المخبأ في نفس المخلوق الإنساني المغلق؟ أي سرّ يستطيع أن يكشف سرّه؟

لقد نسي الزعيم وصيّة «الشيخ» العابرة عن سرّ القلب فخدعه شيخ الطريقة في المرّة الأولى كما خدعه السلطان أناي في المرّة الثانية.

(٩)

بطل مفعول أحجية الفقيه بالتّقدم فزاره الشيخ في سفاه الثاني بإحادة. أبقظه في ليلة صحراوية توجّها السدر، وهبّ فيها النسيم البحري. أبقتله الهاهمة الماكرة، القديمة. لم تكن هاهمة تمام، ولكنها تطوّرت وأدخل عليها تعديلاً خشناً فأصبحت قهقهة مُكررة. ويبدو أن تدفق الرمان أثر في أهل اخفاء أيضاً فأصابت الشّج بالثّعب ولثّيشوخة.

نفض على مرفقيه وأزاح اللّثام عن عينيه. بسمل وقرأ آية الكرسي. ولكن الفقهية المنكرة، الشامتة، لم تتوقف. تحسّس لأحجية التي اشتراها بأعلى الأسعار فسمع الشّج يهزّ:

- هل ظننت أنك تستطيع أن تفزعني بهذه اللّعبة البهلاء؟ يا لك من طفل! أنت طفل حقّاً. حق - حق - حق - حق...

ههههه طويلاً. ثم.. سكت. سكت طويلاً قبل أن يتبدّى. ظهر في العراء بقامة ماردة. يرتدي لباساً ناصعاً، فاخراً. على عمامته المهيبه استقرّت قطعة «نجولوست» زرقاء. فوق العمامة رأى تيممة عجوسية خفيفة. و... على

الصدر تندلّي ثنائس أخرى. إعتدل في جلسته. صرخ:

- هل أنت مجوسي؟

لم يجب. ترتع على الأرض. تناول عوداً وشرع يحرق به التراب كما يفعل أعيان القبيلة. إنشغل الزعيم بعد التألم المعلقة على صدر المجوسي فكتشف أنها ثلاث ثنائس أيضاً. ثم تذكر فجأة أنه يضع على رأسه تيممة قديمة تلقاها هدية من عراف من كانوا. ثم... ثم تذكر أيضاً أنه يرتدي نفس اللباس.

الهيئة الهيبة، والقفطان الفضفاض. استنكر:

- هل تقلدني؟ لماذا تقلدني؟

لم يجب فواصل آده:

- ها أنت تبغني منذ عشرين عاماً فماذا تريد؟ من أنت؟

- حق - حق - حق... أنا؟

...

أنا أنت. نعم. أنا هو أنت.

هتف الزعيم بعجب:

- أنا أنت؟

- لو كنت حكيماً حقاً لفهمت من زمان. منذ أول يوم.

- ماذا نقول؟

- ولكنك لست حكيماً. خدعوك فقالوا لك أنك حكيم، وتستطيع أن تعيش في الصحراء بالعقل.

أحسن آده بقشعريرة. نفس القشعريرة التي يحسها عندما يبصر أفعى أو يسمع همهمة الجنّ في الكهوف. قال ببرود الحكماء:

- لم يتدعني أحد.

علا صوت الشيخ.

- بل خدعوك. خدعك العقلاء عندما سلّموك القبيلة وقالوا لك أن

تقوده بالعقل. أنظر ماذا فعل العقل بقبيلتك؟ بالأمس سلّمت رقابهم للمغامر كذاب استغلّ حنينهم للخلاص وصراط الحرية. واليوم سلّمتهم في يد مغامر آخر يمدح بأن يبني «واو» بأكياس التبر. ها أنت ترى ما فعله الاحتكام للعقل بعشيرتك المستكنة.

- لست إلهاً. الألهة وحدها تستطيع أن تقرأ الحُبث الذي يحول في رؤوس الناس.

- هذا مبرّر بائس. هذا مبرّر باطل. تستطيع أن تكون إلهاً لو استرشدت بالقلب. لو سلكت صراط القلب. حسابات العقل تحطّء، ولكن قلبك هو دليلك لكشف الرّيف.

- أظن أنّي سمعت هذه الجملة قبل اليوم. سمعتها منك في مرزق.

- وما الفاتنة؟ سمعتها ولكنك لم تأخذ بها. حذرتك بالجملة من الشرور، فلم تنصغ. فماذا كانت النتيجة. طردك شيخ الطريقة المزيف، وأدلك سلطان التبر في أرضك. وها أنت تتمرّع في تراب المنفى.

- الإنسان جاء إلى تراب المنفى منذ الميلاد. الحياة مفضي الجميل، لأنها أرضي أيضاً.

- حق - حق - حق. حسناً. سأوحي للخشاء كي ينفوك إلى أرض أبعد من الحياة في المرّة القادمة.

- لا أعرف أرضاً أبعد من الحياة.

لماذا؟ هناك المدن الممدّدة عد شطآن البحار في الشّال. وهناك أرض الغيلان وراء بحر الدّال. وهناك أرض واق اواق في المجهول.

- ذاك لن يكون منفى. إنه القيامة!

- حق - حق - حق... سنذهب إلى أبعد من القيامة إذا مضيت في تجاهل صوت القلب.

احتجّ الزعيم:

- لا نحاول أن نفرغي. أنا أعرف أنك شبح. وأعرف أنك زرتني لأن

حجاب الفقيه يُطَلُّ بالزَّمن. بالتَّقدَّام. لماذا هربت عندما كان الحجاب مسطَّراً
بالمداد الطَّازج؟

- حق - حق - حق. أنت تضحكني يا شيخ آده. أنت طفل حقاً إذا كنت
تعتقد أن بوسع ذلك الفقيه البائس أن يسيطر بمداده الطَّازج شيئاً يمكن أن
يخيفني. لقد خدعك الفقيه كم خدعك شيخ الطريقة قبله. كم خدعك
السُّلطان أناي. أنت مخدوع إلى الأبد ما ظللت تثق في العقل.

احتذَّ الزعيم:

- أنت تكذب. أنت شيخ بائس وجبان. سأحتكم إلى سيفي إذا هزأت
بـ.

- حق - حق - حق. هيّا إحتكم إلى سيفك. إذا كانت كفاءتك في العراك
مثل كفاءتك في التعامل مع الخلق فيجدرك أن تعتذر عن التحدي.
- لن اعتذر!

- حق - حق - حق!

هَبَّ الشَّيخ في سرعة الشَّيخ. لمع سيفه في ضوء القمر كأنه خيط من
برق. جرَّ الزعيم سيفه من غمده وقفز إلى العراك. تعانقت ألسنة النَّار.
رسمت في الفضاء بروقاً خرافية. تفاقز في الخلاء خصمان عنيدين. انصتت
الصحراء. تنادى الجنَّ وتجمَّعوا للفرجة. زغردت مخلوقات النُّور التي يسمِّيها
أهل الصحراء حوريات. جفلت قطعان الغزلان. عَوَّت الذئاب بالفجيعة.
وأيقظ صليل السيوف حتَّى الضَّبَّ الحكيم في بيئته الشتوي. أصيبت
شجيرات الرَّم. تساقطت منها الأعراف والأطراف، وأشعل السُّلاح الشَّره
نيراناً في أشجار أخرى.

تواصلت الملحمة. استمرَّ السيفان يتعانقان، ثم يتقاطعان. ينثران
الشرار. يتبادلان، ليعودا للالتحام. تابع الكوكب الفضِّي المسحور الصراع
بفضول أهل الصحراء. يتسمم بنخل ثم يعود فيكتئب. في الهواء فاحت
رائحة الشَّياط. همهم الجنَّ. تعب المقاتلان. وقفوا متواجهين يلهثان. رأى

الزَّعيم رمزاً مجوسية محمورة على سيف الحصم عند القبض. رآها بوضوح
تحت أشعة الكوكب الصَّحراوي المسحور. استقرَّ خصمه بلغة طفوية:

- أنت مجوسي. هل أنت مجوسي؟

- حق - حق - حق. وهل يستطيع عقلك الصغير أن يجبرك شيئاً عن
المجوس؟ يُحَسِّنُ بِنِّمُ التَّخذ من العقل دليلاً أن يصمت ويكفَّ عن السؤال.
احتجَّ آده:

- لست في حاجة للجان حتى تعلَّمني متى أسكت ومتى أفتح فمي
بالسؤال.

- حق - حق - حق. يا لبؤس العقل! ما أشقى أهل العقل!

- إذا كنت رجلاً فجرِّب أن تصارعني بلا سلاح.

- حق - حق - حق. لا أدعي القوَّة ولا أفاخر بالجسد، ولكن القلب
يكفي. لن يُهزم مَنْ اعتمد على قلبه. في القلب وحده يكس سرَّ القوَّة.
قبلت هذا التحدي أيضاً.

ابسم لكوكب الصَّحراوي بغموض. تضاحك نفر من الجنَّ. رقصت
المخلوقات السريَّة بأجساد من ضوء.
بدأت المصارعة.

استمرَّت حتَّى توارى القمر خجلاً، وربَّما تعباً.

(١٠)

نهض بعد طلوع الشَّمس بزمن طويل. الضُّحى. لثامه وملابسه مبلَّلة
بالعرق. كان متعباً، محطَّاً بالوجع. عجز في البدء أن يتحرَّك يديه. تدرج
على الأرض المكسوَّة بالحصى. مرَّغ أنفه وعفَّر وجنتيه وهو يتقلَّب في التراب.
كأنَّ مارد النارحة قد قيَّد يديه ورجليه بعد أن حطم ضلوعه. كان مارداً في
قوة الجنَّ. الآن أيقن أنه جنَّ. البارحة اقْتَنَع بهوَّة الشَّيخ. عراك الجنَّ وحده
يورث العجز. إذا شممت رائحة الجنَّ أصابك الوهن والغثان وتحمَّط رأسك
بالصدع. وإذا عاركت هذه المخلوقات الخفية ولا مسها باللحم قيَّدك

لم يشعر بالآلم. قال لنفسه: «جراح الجحش لا تسبب الآلم أبداً».
ثم ضحك بصوت مسموع.

(١١)

جاء يوم وجد فيه نفسه يفتح قلبه لعُرفٍ عابر نزل عليه ضيفاً في طريق عودته إلى كانو. حدّثه عن الشيخ منذ كان وسواساً إلى أن أصبح مارداً عدوانياً بارزه بالسيف وتركه محطاً، مشلولاً، فاقد الوعي.

هرس العُرفُ المهيب حفنة من التبن بين يديه، ثم ألقي بها في فمه الخالي من الأسنان قبل أن يسأل:

- هل تذكر الحوار؟ حدثني: ماذا قال؟

- الحق أنه قال كلاماً كثيراً لا معنى له.

اعترض كاهن الأدغال بيقين:

- لا يمكن أن يكون الكلام بلا معنى. هناك معنى في كل كلام. هناك معنى في اثرتة. هناك معنى في الهمهمة. هناك معنى في صوت الرّيح. هناك معنى في السكون. في السكوت نفسه. كيف تكون زعيماً على قبيلة صحراوية وتجهل لغة الصحراء الأولى؟

غمغم الزعيم:

- لا أجهل لغة الصحراء، وإن كنت أجهل لغة العُرفيين.

- أوكد لك أنّي لم أنطق بحرف من هذه اللّغة حتى الآن. فتذكّر ولا تضيع الوقت.

سكت آده. طأطأ رأسه وبحث في الذاكرة طويلاً ثم قال بيأس:

- الحق أنّي لم أتذكر شيئاً. أذكر شيئاً واحداً: كان قوياً كالجحش. يارب ما أقواه. لقد أعمى عليّ بمجرّد أن احتواني بين يديه.
هَبْ العُرف:

العجز. شرع يقرأ آية الكرسي. قرأها ثلاث مرّات. ثم قرأها معكوسة: عملاً بتصيحة فقيه متجنّبٍ إلّقي به في «تاسزوفت» منذ سنوات. ولكن فقهاء الواحات طعنوا في كفاءة التعويذة وقالوا إنّها بدعة مستعرة من دين المجوس. لتكن بدعة مستعارة من دين المجوس أو النصراني أو اليهود أو حتى الشيطان. المهم أن تحرره من أسرهِ. المهم أن يُخلّص يديه ورجليه. تذكّر ما دفعه الغناء بمقول الشباب. يستولي عليهم الجحش فيقعون في الوجد، يقعون على الأرض جثثاً هامدة. قطعة ميتة من لحم. بعضهم يظلّ ينتفض كحيوان مذبوح. والبعض يبقى جثّة. ولا ينقذهم من أسرهِ إلاّ المذبذبة. يسرع إليهم الأقران ليجزّوا السكين السري على أجسامهم الهامدة فتبعث فيها الحياة. المديّة تقتل الجحش وتحرر المجدوب من الأسر. ينفض المصا. الوجد ليجذب ويرقص ويفرح بتحريك الأعضاء المشلولة.

أفلحت القراءة المعكوسة لآية أن تحرّر يده اليمنى ورقبته. بحث بعينيه عن سيفه. رآه مرشوق بجوار رقعة أسقط جنون البارحة شعرها السبط عن رأسها. زحف نحوها. جاهد حتى أمسك بالسيف من القبض. جرّه على رقبته كأنه ينحر نفسه. ثم مرّه على جسده كلّهُ، من رأس حتى القدم. سحب نفساً عميقاً. عدلت له الحياة. أحسّ بالإنهك الذي يعقب المريض الطويل، ولكنه تلذذ بالسعادة الغامضة التي تلي المرض الطويل أيضاً.

بعد لحظات استطاع أن يرفع رأسه ويشاهد لافق الصحراوي وهو يتوالد ويتشدّد. تكلم بهجة طفولية:

- يارب. كان مارداً كالجحش. هل يُصدّق أنّي صارت جنيّاً؟

هناً نفسه على لُحْجاة بصوت مسموع:

- الحمد لله. الحمد لله.

نفقّد الصحراء فوجد أن العراء معروث بعراك اللين. وجد جرحاً على معصمه الأيسر. جرح صغير يعلوه دم تبيّس وامتزج بحيبيات الرمل. ولكنه

- هل تهازي؟ سألتك أن تتذكرَ الحوار ولم أطلب منك أن تصفَ ما رداً
أعرفه خيراً منك .

سأل الزعيم بدهشة :

- تعرفه؟

ولكن كاهن الأدغال تجاهل السؤال . بصق لعاباً كثيباً وقال بعناد :

- حاول أن تتذكرَ شيئاً . ولو جملة واحدة . كلمة . .

فكرَ الزعيم . تذكرَ الجملة التي ظنَّ طوال الوقت أنها سبب الخلاف بينه
وبين خصمه السري القديم . أراح . اللثام وأخرج عن فمه ليقول
- أظنه قال مرةً أن حسابات العقل تحطىء ، ولكن قلبك هو الدليل
لكشف الزيف .

هلل الكاهن الجليل . وهتف بحماس الزوج :

- ها . هل رأيت؟ هل بوسع مخلوق عاقل أن ينسى إشارة خطيرة كهذه؟
هل في اللغة البشرية خطاب أوضح من هذه الجملة؟ هل في لغة لصحراء
رسالة أكثر الوهيّة من هذه الرسالة؟

التفت خلفه وبصق النبع بصوت مسموع . رأى آده في عينيه ألفاً خفياً .
فرحاً خفياً . الألف الذي رآه في عيون المغامرين عندما يكتشفون كنزاً . ولكن
أليست الحكمة كنز العرافين؟ أليست الاعياد الإلهية حلم الشعراء؟

تكلم آده بخجل :

- الحق أنه قال كلاماً كثيراً بهذا المعنى .

- بأي معنى؟

- عن العقل والقلب و . .

- وماذا؟

- نسيت . نسيت . ولم أعد أذكر غير قوّته الجنونية . قوة الجن .

راقب العراف أفق العشيّة . تشتّت السراب في العراء المفتوح ، الفسيح .
فوق أسماط السراب المحتضر طار غروب وحيد متجهاً صوب الشمال .

تكلم العراف بالبيشارة بصوت الكهوف المجهولة :

- هل تريد أن تعرف خصمك؟

تابع الزعيم الغراب المهاجر ولم يجب . فك كاهن الأدغال رموز النبوءة :

- إنه قرينك !

هتف آده :

- قريني؟

- نعم . قرينك . وقرينك في لغتنا يعني «أنت» .

- أنا؟

- ولا أجد غيرك .

- لا أفهم . لا أفهم هذه اللغة .

- نفسك . إنه نفسك . هل تفهم؟

- نفسي؟

ضحك آده باستخفاف وقال :

- أنت تسخر مني . كيف تطاردني نفسي عشرين عاماً وتنازلني بالسيف ،

ثم تحطم ضلوعي كالتي حزن؟

قال العراف ببرود :

- وهل في الأرض مخلوق أقدر من النفس على القيام بهذه الأشياء؟

ضحك الزعيم بصوت عالٍ . أوضح صوت الكهوف :

- المخلوق يتفلق إلى نصفين ما لم يجد نفسه . ولن يجد نفسه إلا في

السكينة .

- وما علاقة النفس والسكينة بالعقل والقلب اللذين تغنى بهما القرين

الذي تتحدث عنه؟

- أنت تحبّري . لا أستغرب أن تجد نفسك في المنفى مرتين ما دمت

تستخدم هذا المنطق الطفولي . أين الزعيم؟ أين الصحراء؟ لم أسمع خبرة

الزعيم ولم تتكلم فيك الصحراء . أخشى أن أنازلك بعد قليل كما فعل قرينك

الشجاع . لا أخفي عليك: إني أشعر بالعاطف معه .
سأب آده بيلاهة طفولية .

لماذا؟

- لأنك أحمق . لا تقل إنك تركت قبيلتك للأغراب مرتين من باب التسامح وترويض النفس على الحكمة والإعتدال . لو اهتمت بالحياة بالقلب كما أشار عليك شفت الآخر لما اضطررت أن تدفع الثمن . لقد خدعك الأسلاف عندما أشاروا عليك أن تقود قبيلتهم بالعقل وحده . .
قاطع الزعيم مستكراً .
- الأسلاف لا يخطئون أبداً . إحترس!

ولكن الكاهن تجاهل الوعيد ومضى ينكل بسلطان العقل:
- العقل لا يقود إلى الخلاص . بل إنه هدام . هدام إذا لم يستتر بمشعل القلب .

- تتكلم كأي درويش .
- ولم لا؟ كننا دراويش . أنت أيضاً درويش .
- أنا؟

قال العراف بيقين:

- نعم . أنت . ولو لم تكن درويشاً لما انفلقت إلى نصفين لتجد نفسك مطارداً بنصفك الآخر طوال عشرين عاماً . هيء - هيء - هيء . .
- أنت تستهزيء . هل تستهزيء؟

- لم أستهزيء يوماً . العراف لا يعرف الاستهزاء . تعلم أن تنصت عندما تتكلم النبوءة على لسان العراف . إستمع إلى قلبك واستعرف الزيف . وستجد الخلاص، أيها الدرويش . هيء - هيء - هيء . .
- هل تصرُّ أيّ درويش؟

- نعم . أنت درويش . وستشقى كثيراً إذا لم تتعلم أن تنصت للنبوءة، ولصوت القلب . .

(١٢)

مكث الزعيم طويلاً في منفاه بالحياة .

تجول في العراء المكشوف . صعد الروابي المحروقة بنار الشمس ونار البراكين . زار الجبال لزرق وتأمل العمامات الزرقاء . ركب جمه وجاء بقرب الماء من آبار السودان في النواحي السفلية . رقد على ظهره وراقب الكوكب الصحراوي المسحور . وفي إحدى الليالي همس الكوكب الفضي بسر القلب، وسر صداقته بالدرويش .

في الصباح حرقه احين . حين للقبيلة، وحين لمعانة الدرويش .

لياسول (قبرص)

١٩٩١/٨/١م

إِلَهُ الْحَجَرِ

(١)

قامته كانت تستقر الأقران. يعبرونه بد القرم ويرجمونه بالحجارة. فكان يجمع الحجارة في ثوبه الفضفاض ليبي بها مدناً. تصيبه بعض الحجارة، فتنبت في وجهه الكدمات، وتنزف أطرافه بالجراح والدم، ولكنه لم يبال يوماً. يمسح الدم والدموع، ويتحسس الكدمات. ينحني على القطع السحرية المتفاوتة الأحجام والأشكال التي تنقأها من الأقران الأشقياء مقابل قامته القصيرة التي صنعت له نسباً لم يعرفه بقبائل الأقزام. يملاً جحره ويذهب إلى العراء الرملة وراء المتجمع. يسجد على الأرض ويشرع في البناء. لا يبدأ في العمل إلا بعد أن يضع لحظة ويتأمل الأدوات. فالمدينة لا بد أن تقوم في عراء فسيح، في قلب العراء الفسيح، بجوار المرتفع، أو الجبل الذي يرفع رأساً جليلاً إلى السماء، وحجارة البناء لا بد أن تكون مناسبة أيضاً. هناك الحجر المستدير، وآخر مستطيل، وثالث مثلث، ورابع مسنن الأطراف، وخامس مصقول ولعاع، وسادس يومض باغراء تحت أشعة الشمس، وسابع معتم ولكنه يوهي بجبال خفي، وثامن يحضن سراً، كأنه يخفي كنزاً تحت قناع صارم كتيب.

هذه أنواع الحجارة..

لا. ليست هذه أنواع الحجارة كلها. هناك حجارة أخرى تخفي سراً أكبر من الكنز، وأكثر جلالاً من الجبال. هناك الحجارة السرية التي تخفي الله.

كان إذا رجع الأقربان بحجر من هذا النوع، يرفع الحجر إلى شفتيه، يقبله بحنوع، ثم يكي بالدموع قبل أن يدسه في جيبه. يهرع إلى البيت ولا يعأ بالزيف الدموي على وجهه. يدخل الخباء يخنيء في الزاوية، في العتمة، يخرج الكنز الإلهي. يتأمل طويلاً وهو يمسح دموعه بين حين وآخر. وقد ينشج بصوت مسموع إذا كان الحجر موحياً وغامضاً وماوى لأهله السريّة. وهو لا يستعمل هذا النوع من الحجارة في لبنان. بل يدسه في أخريج، ولا يخرجها ويضعه في جيبه إلا إذا اضطرتّه الظروف عندما ترسله أمه في الليل إلى بيت الجيران ليستعير حفنة الملح أو زبد النار. يتحسّس الحجر في جيبه فيشعر بالأمان. يهرب الجنّ. تنبّد الظلمات، ويتر له إليه الحجر طريفاً في لبس الصحراء البهيم. قبل أن يكتشف احجارة المقدّسة رأى الهول على يد أهل الخفاء. يتحلّقون حوله كمحرد أن يخرج إلى العراء في ليالي اسطلمات. يفتحون أفواهاً كربة يسيل منها دم أسود غزير. يقطعون رؤوسهم بأنفسهم ليرعبوه. أو يمشون رأساً على عقب، أو يمدّون قماماتهم في الفضاء حتى تغيب في الساء. يسقط قلبه إلى بطنه. ويزحف البرد على صدره، ويصيبه الدّوار. وكم من مرّة عجز في الوصول إلى الخفاء، وأغمي عليه في العراء قبل أن يقضي حاجته.

وراق للمرءة مرّة أن يسخرها منه فأحاطوا به في حلقة وطفقوا يدغذغونه حتى كاد يموت من فرط الضحك، ولو لم يُعْمَى عليه مات بالضحك.

ولكنه وجد التميمية في الحجارة.

وجدها بنفسه. لم يعطه له فقيه، ولم ينلها من يدي عرّاف، ولكنه إكتشفها بنفسه. الحجر الإلهي طرد الجنّ. وأزل في قلبه الاطمئنان.

في البداية رأى أن استعمال مثل هذه الحجارة في بناء بيوتة الحجرية قد يغضب الالهة الخفية، وخشي أن تبطل لتعويذة فتخلّ عنه للجنّ، ولكنه تخاسر مرّة وبنى بيتاً حجرياً في الوادي، وصنع للبنين عموداً جليلاً يشبه عمود الخياء المركزي، ووضع الحجر السري أساساً للعمود المرفوع في قلب

البنين. ترك البنين وعاد في الصباح. وجد غزالاً مسحوراً يركن بجوار العمود. وعندما أبصره وقف على قوائمه. ركع برأسه على الأرض، ثم رفع إليه نظرة طويلة غامضة. ولم يحفل ويستراجع إلا بعد أن تقدّم نحوه خطوات. هروا مسافة قصيرة ثم توقّف والتفت إليه. في عينييه الكحلاوين رأى أخموك السرّ والسوداعة واحزون. حدّق لحظات أخرى ثم ركض حتى اختفى في انعطافة الوادي.

حدّث أمه فلم تصدّقه. ردّدها للأقربان فهزأوا به ورجوه بالحجارة. تساءل كثيراً ما الذي يجعل مخلوقاً هبّياً كالغزال أن يطمئن لبنين أقامه الإنسان. عرف أن السرّ في الحجر. الحجر السري هو الذي جذبها. لولا الحجر الإلهي لما جرّو مخلوق بريّ كالغزال عن الاقتراب من وطن الإنس. من بنين ممسوس بيد الإنس. لأن العجائز تؤكّد أن رائحة الإنس في خياشيم الغزلان كرائحة الجنّ في أنف الإنس، تصيب بالدّوار والصداع والحمى وقد تؤذي إلى الموت. ولكن الله في الحجر هو الذي جذب الغزال وأعطاه الإحساس بالأمان. ولكن ما سرّ الحجارة المقدّسة؟ ما الذي يميّزها عن غيرها من الحجارة؟ لا يدري تماماً. يقيناً إنه ليس الوميض أو البريق. وليس في الشكل أو التكوين. يعرف شيئاً واحداً. يعرف أنها تخفي سرّاً كبيراً. يعرف قلبه. تزداد نبضاته وتندفق بالرهبة والدم. تضيق أنفاسه وترتفع احاررة في بدنه. يشعر بالرهبة ويعرف أن السرّ في الحجر. يحس بالخوف في البداية. ثم يغيب في سكون عميق. تعقبه طمأنينة وسكينة. ولا يعرف نفسه لماذا سمّى هذا النوع من الحجارة حجارة إلهية. رآته أمه مرّة ينحني ويقبل حجراً طيباً فتوعده بالسؤال: «هل تقبل الحجارة؟ هل تعبد الحجر؟ ي بلك من الفقيه! حذار أن يراك الفقيه». ولكن الفقيه لم يره يقبل حجراً وإن عرف دائماً ولعه بالأحجار. كان يقترّب منه في أوقات الدرس. يطرد الذئب عن وجهه بالمشة البيضاء. يتنسم في وجهه ويسأل: «هل وجدت حجراً غريباً؟». يتضاحك الصبية فيشتهرهم بعبوس ويلوّح لهم بسبابته مهزداً. ثم ينحني فوقه. يتفقد

الآيات التي كتبها على لوحه ليقول له هامساً: «ماذا في الصحراء الكبرى غير الحجارة يا بني؟». اطمئن. سوف تجد في هذه الدنيا أكثر أحجار الأرض غريبة. سوف ترى». يتعد الفقيه الجليل فيسخر منه الأشقياء. يأكلون النمر سرّاً ويجهونه بحبات النوى في غفلة من الفقيه.

استمرّ خوفه نحو الحجارة الخفية. خوف يشبه الخوف الذي يستشعره نحو أهل الخفاء. جاء إلى أمّه وهي تمخض الحليب في صباح أحد الأيام وسأها:

- لماذا أشعر بالخوف من الأحجار السرية يا أمي؟

استمرّت تتأهّل مع الشكوة إلى اليمين واليسار. قالت دون أن تبسم:

- السر. الخوف سببه السر.

- وما هو السر يا أمي؟

تجهمت ملاحظها الهادئة. كتبتها مسحة مفاجئة من الصرامة. في عينيها ومضت دموع:

- السر هو الله يا بني!

تابع حركتها الراقصة مع الشكوة وهو يتدفّق عند الموقد. احترقت مقلّته بالدموع أيضاً. سأل وهو يدفع إلى النار بالحطب:

- من أين يأتي الله في الحجارة؟ لماذا يختار هذه الحجارة ليتخذها مأوى دون غيرها؟

استمرّت الأم ترقص مع شكوة الحليب. تجذب يميناً ويساراً كدراويش القادرة. إختفت لدموع من عينيها ولكنها ظلت تومض بالوهج والبريق. قالت:

- الله يأتي إلى أحجاره من كل مكان. من السماء ومن الأرض. من القلبي ومن قطرات الأمطار الموسمية. من شعاعات الشمس، ومن نور القمر

عندما ينتصف الشهر ويتحوّل بدرّاً. وهو يختار هذه الحجارة لأنها كانت أدوات استخدمها الأجداد في حياتهم القديمة. إنها حجارة مباركة يا ولدي. يكفي أن يكون الحجر مستخدماً في يد الأسلاف كي يتخذ الله مأوى ويصبح حجراً كريماً.

سقطت على وجنته اليمنى دمعة كبيرة. غمغم بذهول:

- سابوح لك بسري: لقد احتमित بالحجر السري من الجنّ. لقد طرد قبائل الخفاء ولم أعد أخشى الخروج في الليل لقضاء حاجتي. هل تصدّقن أنه أفرغ الجنّ؟

إبسمت، الأم بغموض. قالت بصوت كالمس:

- طبعاً أصدّق. لقد رأيتك تدسّ الحجر في جيبك قبل الخروج، ورأيت الجنّ تهرب من الحجر المبارك وتختفي في الخلاء.

قال ببهجة طفولية:

- أنا سعيد لأنك رأيت ذلك بنفسك. ظننت أنه سري وحدي.

دعته دون أن تتوقف عن حركة المجاذيب:

- لا سرّ يخفي عن الأم يا بني.

(٢)

جّع عدداً كبيراً من الأحجار السرية. ولكن الحجر الأخير اختلف عن كل الأحجار. خرج إلى الرابية الشائبة قبيل الغيب، في سفح الرابية وجد كوماً كبيراً من أحجاره. أحسّ بجلال غامض. نفس الجلال الذي يستولي عليه عندما يعثر على حجارته السرية. تفقد الحجارة فغمرته قشعريرة. طبقة من الشوك نبتت بين جسمه وملابسه. امتلأ الصدر بالجلال. فاض القلب بالجلال والخوف. كبر الخوف. ولكنه خوف مزوج بسعادة غريبة كأن مرّة الجنّ جنمت كلها واقتزحت أن تأخذها في رحلة حقيقية إلى المجهول. لم

يتخلّ عن الحجر الرهيب. كان مستديراً، أملساً، موبوساً بمرور سرية حمراء في قلبه. قطعة خفية من الصوان العجيب. تحرّكت الرموز السرية الحمراء وتكلّمت بلغة لم يفهمها، لغة غامضة، ولكنها جليّة. اشتعل الحجر بالنار وحرّق أصابعه الصغيرة. ركع على ركبتيه ولم يتخلّ عن الحجر، عن الكثر. عن السر. تنادى المردة وأخذوه في رحلة حقيقة مجهولة إلى المجهول. استمرّت الرحلة دهرًا طويلاً، طويلاً طويلاً، عمرُ بكامله، أعماراً بكاملها. رأى أعاجيب عجزت لغته أن تحكيها. وكلّما تذكّر تلك المعجزة بكى. حتى بعد أن كبر وأصبح رجلاً كاملاً يلفّ وجهه بالثام كان يبكي عندما يذكّر تلك اللحظة الخالدة. يبكي في حضور الرّجال أو حضور النساء بلا خجل.

ثم أعاده لجنّ إلى الرواية في ذلك المساء فوجد نفسه راکعاً يبكي بجوار كوم الحجارة. كان يمسك بالحجر. يضمّه إلى صدره. يختضه بين يديه كأنه يخاف أن يهرب منه ويتركه وحيداً في الصحراء.

ثم استطاع أن يقف على قدميه. ثم وجد نفسه يجري. يجري. ويجري. لم يهرع إلى المضارب. لم يركض إلى أمّه ليزفّها البشارة. ولكنه هرب إلى العراء الصحراوي الأبدى. كان يردد بصوت عالٍ: «الله. إنه الله. لقد رأيت الله!» ويركض في الخلاء الخالد المغمور بفيض الغسق. بلغ وادياً ظاماً. ركن إلى طلحة عطشى. أمسك جذعها بيد، ويده الأخرى تضم الحجر الرهيب إلى صدره. و... بدأ يبكي. بكى حتّى حلّ الليل وطلع القمر.

عاد إلى البيت.

لم ينم.

في الصّباح ذهب إلى الفقيه في بيته.

وقف في المدخل وسأل وهو يرتجف:

- هل يستطيع سيدي أن يجيبني على سؤال؟

ابتسم الرجل الجليل. تلك الابتسامة الغامضة التي تسمح لهم وتصنع السعادة. أخذ من يده وأجلسه بجواره حول موقد النار. إفتض بكارة الجمر بمسعر نحيل. وضع إناء الشاي فوق الجمر المتهك. لهُ بعباته وقال:

- والآن تستطيع أن تسأل ما تشاء. على الولد المجتهد أن يحمي بدنه من البرد قبل أن يلقي بالسؤال.

ولكن أخوك الصغير استمرّ يرتجف. ارتجف برغم دفء النار ودفء العباءة. قال بعينين دامعتين:

- هل يتجلّى الله في الحجر يا سيدي؟

سكت الفقيه طويلاً. لم يهرش النار بالمسعر النحيل، لم يداعب لحيته البيضاء. لم يتنسم أيضاً. ظلّ يحذّق في النار. في النهاية قال:

- نعم. أعلم أن الله يتجلّى في كل شيء. حتى في الحجر.

هيمن صمت آخر. جرحت توجعات الحطب في النار جلال الصمت.

تتم أخوك الصغير:

- لقد رأيته يا سيدي. شيء لا يوصف. السر أكبر من أن يوصف يا سيدي.

تتم وراءه الفقيه.

- لست مضطراً أن تبوح بسرّك لأحد يا ولدي. لا تخبر أحداً بما رأيته.

هل فهمت؟

فهم. وأحبّ الفقيه في تلك اللحظة. أحبّه كما لم يحبّ أحداً. أحبّه كما يحبّ أمّه، وربما أكثر مما يحبّ أمّه نفسها. الفقيه الجليل جاء إلى الصحراء مطروداً من الواحات الشاليّة. ويُقال إنّه هجر الواحات بسبب خلافات حول الشريعة والتفسير نشبت بينه وبين فقهاء السُّنة أتهم بعدها بالزندقة. فاضطرّ أن يهاجر في صحراء الله الواسعة ويلتحق بقبائل الصحراء. يعلم الأولاد القرآن ومبادئ الدين. ولكن أهل المعرفة يطلقون على الفقيه لقباً آخر. كان

- وَمَنْ منا لا يريد أن يراه؟

اشتعلت في صدره اللهبه واحترق صدره بالحنين إلى الرحلة الحقيقية المجهولة. الرحلة التي استمرت عمراً كاملاً ورأى فيها العجب بعينه. غمغم: «أريد أن أراه» قبل أن يرفع صوته بنواح فاجع.

(٤)

توطدت علاقته بالحجارة.

كانت لهفته لاكتشاف الله، حنينه لرحلة المعجزة والمجهول، والكبرياء الغامض الذي يراه في هذه «الكائنات» هو ما سحره وجعله لا يرى في الصحراء العظمى شيئاً غير الحجارة. وقد لاحظ أن ترتيب هذه القطع الخفية وتنسيقها يبعث فيها حياة أخرى. يجعلها تعيش كالناس وتفرح ككسل المخلوقات الصحراوية. كان يقضي النهار في المراعي يداعبها ويرتبها ويستنطقها ويبحث في أشكائها وهياتها عن سرها. يقيم بها البيوت والأسوار والتماثيل ليعطيها السعادة ويميد لها الحياة. كان عن يقين أن هذه القطع الحزينة التي لا يرى فيها أبناء القبيلة سوى الجثث الصماء، هي «كائنات» نبيلة ومرحة حرقها الشمس وخذلها الزمان. انكفأت على نفسها واختارت العزلة الخالدة. رأى هذه العزلة الجليدة دائماً. رأى اللغة السريّة الكتيبة دائماً. وإلا ما هذه القوة التي تنطق بها الحجارة دون أن تحتاج إلى لغة إن لم تكن قوة الله؟ ما هذا الكبرياء إن لم يكن كبرياء النساء؟ ما هذا الجلال الذي يلقيه في صدر المخلوق إن لم يكن سرّاً مستعاراً من جلال الخالق؟ مَنْ قال إن الله لا يسكن إلا في صدور المؤمنين؟ كل العقلاء يردّدون هذه التسمية. كل الأقران يردّدون ذلك وراءهم. ولكنه على يقين أن الله يفضل أن يسكن في الحجارة. حجارة الخلاء أكثر نبلاً وطيبة وسكينة ورحمة وجالاً وأماناً من صدور الخلق. هو على يقين أن الفقيه سيوافقه هذا الرأي. ولكنه على يقين أيضاً أن الفقيه سيمس له أن يحبس السر في صدره ولا يوح به لأحد. فهو شعر دائماً بالحيرة

الكبار يقولون إنه شيخ الطريقة القادرية. ولكن لتلاميذ لم يفهموا معنى لا ل «الشيخ» ولا ل «الطريقة» ولا ل «القادرية»، كما لم يفهموا فيها معنى لثمة «الؤندقة» التي أخرجته من الواحات ودفعته به إلى الصحراء الوسطى. وقد لاحظ أن شيوخ القبيلة ينادونه بلقب «شيخ». ولم يكن ذدرأ، وقتها، أن يميز بين «لفقيه» و«شيخ». ولم يفهم هذه الأسرار إلا بعد أن نرح إلى تينبكتو والتحق بالمدرسة القرآنية الملحقه بالجامع القديم.

(٣)

احتفظ بالحجر الرهيب، ولكن الله لم يظهر.

أخرجه من الخريج مراراً، وحمله إلى المراعي. ونسجاه في الليالي التي يستولي فيها ليلدر على الصحراء. ضمّه إلى صدره ونام عن هذه الحال مرّات كثيرة، ولكن الله لم يظهر.

قضى ليلة يكي حسرة على الحجر وحنيناً لرؤية الله فقالت له أمه في الصباح:

- أعلم أن الله لا يظهر للإنسان إلا مرة واحدة.

حدّق في وجهها الساكن بذهول فأوضحت وهي تستعد للرقص الصباحي مع شكوة احبيب:

- لا يظهر مرتين للمخلوق، كما أنه لا يظهر لكل مخلوق.

فرك عينيه الحمراوين من فرط البكاء الليلي فواصلت الأم:

- اختارك فتبدى لك من بين ملايين المخلوقات فلماذا لا تقنع وتفهم وتكتم السر كما يليق بالأخيار؟

قال بعناد الأولاد:

- ولكي أريد أن أراه.

قالت بصبر الحكماء:

لم ينجل في أن يستمع إليها بشغف العشق.

لم ينجل أن يخطبها بلغة العشق أيضاً.

لم ينجل أن يقبل الحجرة المقدسة التي تنقل له خطابات الأسلاف، أو يتلقى منها إجماعات الله.

فعل ذلك كله أمام جموع البنائين فلم يضحك أحد، ولم يستنكر أحد. في المسوات الأولى سمع همساً: «إنه مفتون بالحجارة». إنه يعبد الحجر». ولكن السلطان أسكنهم عندما قال: «لن يفلح في رصف الحجرة من لم يعبد الحجرة». فتركوه ومات أهس في المهذ.

ولكن ما أثار البنائين المحترفين هو شيء آخر غير العبادة، وغير العشق. فقد لاحظ أهل المهنة أنه لم يد يده ويكرس حجراً طوال عمليات البناء. كما لم يسمح للبنائين أن يفعلوا منذ استلم أسرار المهنة وولاء السلطان عليهم كبير البنائين. اشتهر آخوك بهذه الزمة في كل الصحراء، واعتبرها أهل الخبرة معجزة إلهية، إذ لم يكن لأحد من الحرفيين أن يتصور تشييد بناية حجري دون كسر حجر واحد. كما لم يخطرب بال أحد، بما في ذلك السلطان نفسه، أن السر لا يكمن في المعجزة، ولكن في المهنة.

كان يستيقظ مع طلوع القبس الأول. يصلي ويقرأ الآيات لقرآنية. يخرج ويبدأ في نقذ أكوام الحجارة. يبدأ حديث العشق، ويستغرق في مناجاة طويلة تستمر حتى شروق الشمس. يتكلم بصوت مسموع أحياناً، يتمم أحياناً أخرى، ثم يخطب المشوقات بلغة القلب وآله والغموض. تنقل له احجارة خطابات الأسلاف، تنقلها له مرموزة في علامات وإشارات وإجماعات. فلا يجد صعوبة في فك الرموز والإشارات والإجماعات. لأن المجبة القديمة علمته لغة الحجر قبل أن يتعلم لغة الناس. وما زال يرى أنه يستطيع

كيف يستطيع الخالق العظيم أن يأمن نفسه في صدور الناس التي تشتعل بالوسوس والرغبات حتى لو كانت مؤمنة. أليس صدر الحجر المسالم أكثر أماناً وسكينة ودفناً؟ يتسم ويضحك وهو يعقد المقارنات بين صدور الناس وصدور الحجارة وأيهما أجدر بربواء الآلهة.

تنفتت الصحراء الوسطى بالقبلي سنوات كاملة. عم الجفاف وجاء دور الأيام العجاف ليهيمن على الصحراء. يشت القبائل من الرحمة فنزلوا للإقامة في تينكتو. هناك واصل تعلم الفقه وأصول الدين في مدرسة الجامع القديم. ولكن علاقته بالحجارة لم تنقطع عن الفروج من الصحراء. بل تطورت في تينكتو فوجد نفسه يشارك الخبراء في تشييد البيوت ويتناول في البنايا وتعمير المدينة. أدهشت موهبته الخبراء القدامى فقال منهم الاهتام وأذاعوا في تينكتو خبر براعته في التعامل مع حجارة البناء فوصل أمره قصر السلطان. استعان به في ترميم سور القصر القديم، ثم سور المدينة. ترك المدرسة القرآنية وسخر حياته للحجارة نهائياً.

كان سعيداً إذ رأى حجارة الصحراء تتدلى على يديه. تنبض من موتها في العراء لتبدأ الحياة في الصوامع والقلاع والبيوت والجوامع. تشارك الناس حياتهم، تسخر من أعمارهم، تحزن لأحزانهم، ترضي لحالمهم، وتفرح معهم عندما يكونون سعداء. كانت تحدثهم دائماً، ولا تبخل عليهم بالحكمة والنصيحة ولكنهم لم يسمعوها يوماً. كانت تقول لهم في كل رمشة عين أن الدنيا فانية، والحياة باطلة، وتنصحهم ألا يقايسوا وهم الحياة بحقيقة الآلهة، ولكن عبثاً.

رأى آخوك دائماً أن أكثر ما حير الحجارة أن الخلق لا يسمعون نداءها، ولا يريدون أن يفهموا لغتها.

كانت حجاراته سعيدة بالبعث والحياة، ولكنها شقية لأنها نتحدث بلغة بكاء لا يفهمها الناس. وكان آخوك شقياً أيضاً لأنه لم يستطيع أن يجعل الناس تفهم لغة الحجارة.

أن يفهم الحجر ويتعامل مع الحجر بطريقة أسهل من فهم الناس أو التعامل مع الناس.

في أحيان أخرى يتلقى من الحجارة الأسرار العظمى. أسرار الآلهة. فيبدأ مناجاة حزينة تنتهي بالبكاء أحياناً، أو بالوجوم والسكينة أحياناً أخرى.

يتلقى أخوك خطابات الأسلاف ورسائل السوء كل يوم قبل أن يشرع في العمل.

(٦)

استقدمه السلطان «أنسي» لتشييد مدينة «وار» فاختلف معه بشأن مادة البناء. رأى السلطان أن يتم البناء بالطين، الأحمر فقال أخوك إنه لا يحسن التعامل إلا بالحجر. حاول المستشارون والعرفاؤون وأهل العقل والخبرة أن يقنعه بمزايا التربة الطينية في المحافظة على البنيان والصمود في وجه الزمان وعوامل التعرية الصحراوية. فأبى وعاند ودافع عن كفاءة الحجارة. ضربوا له المثل بأبنية الواحات الطينية وقالوا إن لها قدرة خرافية على قهر الزمان والضرب في وجه القبلي فاقترح أن ينسحب ويحشوا عن خير آخر أكثر منه علماً بمادة الطين. تولى السلطان الأمر وحاول أن يقنعه بنفسه. حاوره قائلاً:

- لا أدعي العلم بما ليس لي به علم. ولكني أعرف شيئاً واحداً مع ذلك هو قوة الطين. ولو لم يكن الطين بهذه القداسة وهذه القوة لما خلق الله منه المخلوقات.

قال أخوك بتسليم:

- لا أنوي أن أشكك في اختيار الإله، ولكن لا أستطيع أن أدعي العلم. ليس لي به علم أيضاً. عبدك الضعيف لم يعرف غير الحجارة. لم أعرف غيرها في البنيان كما لم أعرف سواها في الحياة.

- لو كنت أملك الوقت لأخذتك من يدك إلى واحات الصحراء المقامة بهذه المادة السحرية، ولجعلتك تقف بنفسك على قدرتها في الثبات على

الأرض، والصمود في وجه غول الزمان.

- لا يستطيع مخلوق صغير مثل أن يطعن في مادة فصلته عن التراب وجعلت منه إنساناً مكابراً يدب على قدمين، ولكن السر، يا مولاي، أني أجعل سرها. أعطني حجراً وسترى كيف أنزل لك «واو» الضائعة من سبائك لتراها حقيقة أمامك في الصحراء.

- ألا تثق بالسحرة؟ ألا تثق بالعرافين؟ ألا تثق بي؟

- استغفر الله. وهل يجزئ المخلوق الصغير أن ينكر هذه الأسياء الجلييلة؟ ولكن ماذا أفعل! إذا كان قلبي في الحجر؟

فكر السلطان. رسم رموزاً سرية على الأرض. حاججه بلغة الأسلاف: - يتحول الحجر إلى طين بفعل الزمان، ولكن الطين لا يتحول إلا إلى طين.

شكك أخوك في الحكمة السلفية:

- لا أريد أن أطعن في حجة مولاي فأقول إن الطين يتحول إلى صلصال، إلى حجر، ولكن شئت أن أقول شيئاً آخر يجزني: فالزمان، يا مولاي، يحول كل شيء إلى لا شيء. الحجر إلى تراب، والطين إلى هباء تطير به الريح. ألا ينتازل مولاي فيشارك عبده الصغير الرأي القائل إن احجر أكثر صموداً من الطين لسبب واحد هو أن الطين يحتل المسافة الفاصلة بين الحجر والهباء؟

غمغم السلطان:

- اعترف أنني لم أفهم غمماً.

- أردت أن أقول إن بناء الطين يتحول حالاً إلى تراب وهباء عند الانهيار، في حين يملك الحجر فرصة أكبر للمقاومة. فالزمن لا بد أن يحيله إلى طين قبل أن يضع حداً لحياته في الفناء.

صحك السلطان باستخفاف، فتشجع آخوك ليراهن على السرّي
الحجر:

- في الصحراء حكيم واحد، تحدّى الزمان وحطف وصايا الأسلاف من
فم الريح. حفظ نصوص «أنبي» من الضياع وأتخذ شرائع المسيرة. غنى
للآلهة في السّاء وتظاهر لملاقاتهم في العلا. ثواب كالبنيان المرصوص ليظيل
قامته في الجبال. نال شفقة الآلهة وخشيت عليه من وعاء السفر السايوي،
فنزلت من عرشها ولواقته في منتصف الطريق. فحلت به وكافاته بالخلود.

تابع السلطان مناجاته بفضول. ثم قال بغموض:

- لك الإذن في أن تبني بمادة تدعى لها الخلود، ولكن الإذن مشروط. أن
تكفّ عن مناجاة الحجارة.

تكلم آخوك بحزن:

- كيف تريدني، يا مولاي، أن أكفّ عن مناجاة وطن الله؟

هدّده السلطان بسبابته:

- لا أريد أن تنتهي قبل أن نبدأ. في القبيلة بشر لا يرون في الحجارة إلّا
أصناماً تحلّ فيها الشياطين!

(٧)

دسّ حجاراته السريّة في الأسس، وصنع من ثائمه النفيسة أعمدة لبنيان
المدينة المقدّسة. استعمار أعمدة المضارب، وجعل منها مراكز للمعمار المارك.
استعان بالعرّافين في تحديد الموقع، فأجمعوا أن اسهل، بجوار الجبل
المستحيل، هو قلب الصحراء الكبرى، ومركز الأرض كلّها. ناحى آخوك
حجاراته مع مطلع كل قبس وبدأ رحلته الجريئة لإنزال «واو» من مساوئها
العليا، وإلحاق الأرض بوطن الآلهة في الفرائيس الأولى. استدلل بإشارات
الحجارة، وقرأ فيها وعد القدر وعلامات البشارة. فاز بإعجاب أهل «واو» كما

حاز عن دهشة أبناء القبيلة. أدهلهم أن تُبعث الواحة السايويّة المفقودة في
الأرض الموات فاطلقوا عليه لقب «إيسنغ»(*) دهشة من ضالة جسمه وإعجاباً
بعمله. أكمل بناء السور فجاء من زرع في رأس السلطان أمر القربان.

حدث ذلك بعد الأحداث الجلييلة التي نزلت على رأس «واو». ترددت
رواية في السهل تؤكّد أن الفقهاء والدرائش وسحرة المحوس اتفقوا لأول مرّة
في تاريخ الصحراء فأجمعوا على ضرورة نحر القربان تقريباً للسّاء ودفعاً للجنة
التي لحقت بـ «واو» وظلّت معلقة فوق رأسها كسيف خرافي مسلّط. ولا يُعرف
أيضاً من اختار الودّان بين كل أنعام الصحراء ليكون القربان المرشّح. كما لم
يعرف آخوك متى أعطى السلطان الأمر، ومتى تحرّك العقلاء ورسموا الخطّة،
ومتى انطلق الصّيادون إلى الجبال طلباً لرأس الحيوان المقدّس.

نضض في فجر أحد الأيام ليبدأ مناجاة القبس البكر بلغة الحجارة فوجد
«أمغار» الجليل، يقف في مدخل «واو» الجنوبي، مربوطاً بحبل من مسّ إلى
الباب المصنوع من جذوع النّخل. كانت لحيته المخروطة تتدلّى حتى تلامس
الأرض. وفوق رأسه المكابر تلوى قرنان مهيبان عدّة التواءات. وكانت قامته
توتفع على الأرض وتنافس في طوها قمة النيران. في عينيه رأى آخوك سرّ
الحجارة الجلييلة وسمع كلمة الله.

خرج من بيته واتّجه إلى «أمغار». وجد رجال السلطان يسّنون السّكاكين
استعداداً لنحر القربان. حيّاه أحدهم بإيماء من رأسه. وقطّع الثاني فأخبر:
- أمر السّلطان بنحر القربان قبل الشروق!

لم يعلّق. اقترب من الحيوان العظيم فرأى معجزة. سقط آخوك على
الأرض وبدأ بتلوى. هرع إليه الرجال فوجدوه يرتجف. عيناه جاحظتان وفمه
يلفظ انزبد. توّسل بفجيعة:

(*) إيسنغ: السنون (فامق)

- لا تذبحوا القربان. لا تذبحوا القربان حتى أقابل السلطان!

تبادل الرجال نظرات سريعة. توَلَّى اثنان من المجموعة حملة إلى بيته فقاوم وتوسَّل وكرَّر الرجاء:

- لا تذبحوا القربان حتى أقابل السلطان!

ولكن الأمر قد صدر أن يُنَحَّر القربان قبل الشروق. أكملوا شحذ السكاكين وأوثقوا المخلوق الجبلي. جاء رجال آخرون وانضموا للجماعة. نكأوا فوق الضحية. وأغمدوا في نحرها السكين. عاد آخوك يزحف على قدميه ويديه ويتوسَّل كالطفل:

- لا تذبحوا القربان حتى أقابل السلطان.

ولكن السكين الشرّ كان قد شرب من وريد الإله الجبلي القديم.

وصل الدرويش. ناح بلغة الدرويش:

- ويلكم أهل الأرض. ويلكم مخلوقات الشرّ. ويل للإنسان الذي لا يعرف لشراسته الحدّ. أكلتم لحم الحيوان. أكلتم لحم أخيكم الإنسان. وامتدّت أياديكم إلى لحم آلهة السهوات. فما أتعسكم. ما أشقاكم. ما أبشعكم!

بدأ آخوك يتلوَّى على الأرض كأنه يحضر. وقف فوق رأسه الدرويش ورفع رأسه إلى القيس المقدّس. في تلك اللحظة أفلت الودّان العملاق من جمع الجلّادين. ركض باتجاه «إيديتان» يجرّ حبل المسبّ الملفوف حول ساقه، وتنزف رقبته بالدم. توابب الجلّادون وركضوا خلفه. ولكن الودّان دخل الحرّم الجبلي وبدأ يصعد الصخور المنيعّة.

استمرّ آخوك يعاند الحتميّ آيَّاماً آخر. وعندما مات وسمع الدرويش بالخير قال لنفسه: «لقد مات أمغار أيضاً». هرب إلى وادي الطلح. هناك ناح بلا صوت، وبكى بلا دموع.

(٨)

بعد يومين بدأ غزو بني آوى. جاءوا من الجبل كأنّ أمغار هو الذي بعثهم. تتقدّمهم بنات آوى، وفوق رؤوسهم يحملن مقاتلون من قبائل الجنّ.

لباسول (قبرص)

١٩٩١/٨/٥م

أمغار:

«... معروف كشخصية كوثية.
مطلع على السر. مرتد جلد ظبي أسود،
مع ذقن طويلة. يسافر من المحيط
الشرقي إلى المحيط الشمالي ويخلق
العالم».

مرسيا إلهاد

«تاريخ الأديان والعقائد»

المجلد الأول

(١)

كان علامة محفورة على صدر الصخر. إشارة مجسمة بـ«نافست»^(١٠٠) في كهف نحتته الآلهة في جبل الصلصال. كان وشياً مخطوطاً بروح الأسلاف. إيماء خفية مجبولة بلهفة أهل الصحراء على الحياة والبقاء. نجمة منحوتة على لحمة الحجر، تقيهم شرّ الإنقراض والفناء. أعجوبة خرجت من متاهة السكون والزوال لتقيم في محراب الزمان، لتبتدل معه في خلوده، وسيرورته، وغذره، وباطله. وجد نفسه يفصل عن لحمة الحجر، يذب على قوائم كائن يسعى. يهرع إلى الجبل السماوي المستحيل لينتقط أبناء القبيلة من القمّة، ويعود بهم إلى قمم تادرات. يلقيهم في كهوف الأسلاف ليعودوا إلى الحياة ويُبْعَثُوا أولاداً من جديد. ينزلهم من سماءات «ايدينان» المجهول. يعيدهم إلى الحضيض. إلى الأرض. إلى التراب، قبل أن ينتقلوا إلى أرحام الأمهات، ويتواصلوا في النسل الذي يحمي القبيلة الصحراوية الشقية من غول الفناء.

.. لأن الآلهة شاءت ألا يتحوّل المخلوق السايوي، الهائم مع النسيم فوق ايدينان، إلى إنسان، قبل أن ينتقل ويتبدّل ويتقلب في الأرض كما ينتقل ويتبدّل ويتقلب الزمان المكابر في مداراته السرية. وهو يجهل هذه المدارات. الآلهة التي أرسلته لم تشأ أن تكشف له حجاب التحولات. وجد نفسه مخلوقاً

انفصل عن لحمه الجبل. يجري منذ بدء الحياة ليأتي بالمخلوقات لأرضية عندما تفقد الأوزار التي تشدّها إلى الصحراء، إلى الأرض، فتتخسر، وتتحرّر، وتنطلق مع الهباء والهواء وذرات العبار لتتضم إلى الغمام المجهول المتجول دوماً فوق الفوهة السرية على رأس جبل المستحيل. كان يعرف أنه عجور قديم، يقوم بدور الرسول الذي لا يعرف شيئاً غير البلاغ.

ولا أحد في الصحراء يعرف متى بدأ أمغار رسالته الخالدة، ولا أحد يعرف متى تنتهي أيضاً.

(٢)

وجد أمغار رأسه متوجاً بعمودين قاسيين منحوتين من الصلد كي لا ينسأ أصله الجبلي. ولكنه اكتشف، مع الزمان، أن الرسول يحتاج إلى سلاح للدفاع عن النفس، فاستخدمهما للنطع وردع المخلوقات العدوانية.

اكتشف مهمة أخرى للعمودين المكابرين عقب مطاردة قاسية من الرعاة الأشقياء. فاجأوه برتق في وادٍ عميق مع انشطار الأفق بنور القبس البكر. لا يعرف كيف عرف الأشقياء سرّه فحاذروا أن يأتوه من جهة الريح البحري الذي يتحرك مع الفجر، وتركوه يبدأ صلاة لاستسقاء. يُم شطر الشمال وتُسّم الماء في الهواء الشمالي الرطب. فالأعشاب الجافة لم تزده إلا ظمأً، والسماء لم تجد بقطرة مطر منذ أعوام، فجثّت المياه في شقوق لصخور، ولم يبق إلا أن يؤذي الشعائر القديمة التي ورثها عن الأسلاف: وقف ليتزوّد بلماء من النسيم البحري، ويشرب الندى من فم الرسول الشمالي.

في هذه اللحظة الجبيلة، المشحونة بالخشوع والتسليم والابتهاال، هاجمه الأشقياء من وراء، وألقوا بالهوق على العمودين. قفز إلى العراء وطرد نحو الجبل. نعم. الجبل هو معبد الودان، وحرّم الصحراء. في كهوفه تولد المخلوقات، وفي قمته تصعد إلى السماء. الجبل: مسقط رأس أمغار وحصنه

الحصين. الجبل: العمود المقدّس الذي حفظ وصايا الأسلاف من الانقراض، ونقل للأجيال أغاني الشجن ومواويل الحزن وأساطير التكوين. الجبل: في حضنه يتلاقى أهل الصحراء بأهل الحفاء، يستعيدون الماضي المجيد عندما كانوا قبيلة واحدة لم يفرقها الجمع، ولم يشت أبدءها العدوان. الجبل: صومعة تنمّ بها الصبايا، ونظمت في صبرها شاعرات القبيلة أنبل القضاة. الجبل: عهاد الكون الصحراوي المكابر، ونصب الآهة ومعقلهم العظيم.

وصل حضيض الجبل. بدأ يصعد السفح والهوق معلق برقبته. في طرف الهوق استابت أحد الرعاة وتشبّت بالقيد بالإنسان والدين. ولكن إنتظر! موف أصل حمى مولاي، وأعتصم بجبله. عندها أُرني بطولتك، وأرني قوة حبلك!

وصل أول صخرة. قفزها مستعيناً بعموده الهائلين، وتخطّأها إلى الناحية الأخرى. أحسّ بخفّة مفاجئة. كان مولاه العظيم أزاح عن كاهله صخرة عظيمة. التفت من وراء العين، فرأى أن الشقي، الذي جرّه طوال المسافة، قد تخفّف وراء الصخرة. لم يترع باقي الرعاة لمساعدته، ولكنهم طاروا وراء الطريدة. طاردوه هو وسلقوا الجبل من الجانبين. ولكن انتظروا أيها الأشقياء! سأريكم ماذا يستطيع «أمغار» العجوز أن يفعل عندما يمثل بين يدي مولاه. تقافز فوق الصخور. تنقّل بين حجارة أشرس من مخالب الوحوش. بدأ الأشقياء يلهثون. رماه أحدهم بسهم فاجارته منه صخرة حطّها مولاه كي تكون له درعاً. بدأوا يستغيثون ويتصايحون. أحدهم تدرج عبر السفح بعد أن داس على حجر إنهار امتثالاً لأمر مولاه. أدرك القمّة الأولى. استدار كي يتفقد ساحة العراك. وجد شقيّاً ممسوساً يقف فوق رأسه ويهمّ أن يقطعنه بالرمح. التفت فرأى الهاوية في الظلمات. سمع صوت مولاه بأمره: «اقفز على رأسك. على قونيك المستعارين من لحمه الصخر وستري أن في الموت الحياة».

غلبت، دوماً، حذر أذكي المخلوقات، بما في ذلك الودّان.

(٦)

قاده قدره إلى الطعام الأبدى المدسوس في الطعام. اقتطف فروة الحلفاء وطفق بمضغ يحذر. يطحن العشب الحبرية لحظة، ثم يتوقف فجأة لينصت للديب المخلوقات. صمت. سكون مقدّس. تعب حتى الجنّ وتوقفوا عن محاوراتهم الليلية في الكهوف ومشارف الوديان. تعب حتى التعب وهجع للإسترخاء ولكنه لم يطمئن. كيف يطمئن من ورث ألف ألف وصية سلفية تبدأ كلها بـ «إذا..» وتنتهي بتحذير أصبح شريعة بسبب التكرار: «... فاحترس من المخلوقات التي لا تنام، ولا تكفّ عن اقتراف الأذى».

(٧)

ولكن حاسة السمع حصن آخر ضد حركة المخلوقات. فإذا كان يستطيع أن يرى العدو، بخطمه في نفحة الهواء الذي يشربه على مسافة أيام، فإنه يستطيع أيضاً أن يبصر الخطر بالأذن على مسافة أيام أخرى.

ولكن من يستطيع أن ينافس المخلوق الغامض في اختراع المكائد؟

رأى الأثر المشبوه تحت شجرة الحلفاء قبل أن يتلعق اللقمة الأولى. هل هو أثر عشب برية جرحها الريح، أم طلاس سحرية رسمتها يد المخلوق المدسوس بعرجون نخلة؟ وحتى إذا كانت العشب البرية بريئة من صنع الأثر الخفي، فإن الرموز الغامضة رُسمت براعة لا يتقنها إلا السحرة من فئة المخلوق المدسوس.

حاول أن يتبين الخطوط في الظلمة. تقدّم ليقرأ رموز المجهول. ونسي وصية الأسلاف التي تحذر من الفضول، وتنبه عن التباكي في المعرفة. لأن ما يجيء كامن في الغيب، والنبوءة تنطق بلسان الخطر، ولولا الفضول الشيطاني لما تلقى المخلوق المقدّس لعنة الشقاء، فطرد من فردوس النعيم ليجد نفسه وقد تحوّل من ملاك سهاوي رحيم إلى إبليس أرضي رحيم.

تقدّم خطوة أخرى فوق في الفخ.

نزل السهل في لظلمة. بعد منتصف الليل بكثير. قبيل الفجر الأوّل بقليل. تشمّس التراب، شرب من نداوة النسيم الشبلي، فسكر من رحيق لبحري مستعينا بهواء الندي عن الظمّ الأبدي، مستنشقا أنفاس الفردوس السهاوي البعيد. يبقى النسيم الفجري البكر بلساً للظمّ الأزلي، عزاء في القيقط الصحراوي الخالد. .. تجمّة أخيرة للحياة.

. ولكن هل يطعم النسيم عشباً؟

لا ليس بالنسيم وحده يجب الودّان، حتى لو كان النسيم مستعاراً من فراديس الشبال.

(٥)

بحث في أنفاس الماء عن الرائحة، رائحة المخلوقات المدسوسة التي لا تنام إلا إذا اقترفت أذى. لا تجمع للسلم، ولا ترضى أن تريح الرأس الشيطاني على صدر الأم الأولى، عن صدر الأرض الصبور، إلا إذا قطفت زهرة رتم، أو حرّت رأس نخلة وسكرت بقلبها، أو أجهضت غزالة بريئة تركض في البرية، أو... أو تعاونت في قتل ودّان يعتصم بالجبل، ولا يريد من لخلق إلا اعزلة والمضى والنسيان. ولكن هيهات: فالمخلوق المدسوس لن يهدأ إلا إذا ملأ الجوف بلحم ذوي القربى، لأنه لا يستطيع أن ينام طالما كان الشيع هو القرين الأوّل للنعاس والخمول والإسترخاء.

لوى أخرى سلّطها القدر على رأس الودّان هدته دائماً بالإفراض لو لم يبرح الأسلاف لإنقاذه بحصن اسمه: حاسة الشم. لقد تشقّد كل الأراضي المجاورة بخطمه قبل أن يجرؤ على الإقتراب من عشب الوادي.

(٨)

النبل الصحراوي تقضي أن يعرف بأن كل هذه المسموم لم تكن السبب الذي
مكّن منه الأعداء ليجد نفسه وقد أصيب بالرمح القاتل في النحر . نعم .
فليعترف الآن بأن الإستعلاء هو السبب .

فليعترف أنه خالف وصية العُراف السري ورفع رأسه إلى السماء مكابراً .
نعم . صرية القدر القاصدة لا تنزل إلا في غفلة الزهو وتيه المكابرة .

وهي وصية ورثها عن الأسلاف أيضاً ، ووجدتها أخيراً مخطوطة على
جدار المغارة ، ولم يفعل عُراف الهاوية إلا أن ذكره بها وأعادها على سمعه في
معراجة القديم .

فبعد أن نجا من أيديهم ، واستطاع أن يتحصن بالصخور الإلهية ، شعر
بزهو النصر ، وغمرته الرغبة الشيطانية في أن يتباهى بالتفوق ، وغلبه طبع
الودان الغاني ، فتوقّف عن الركض في القمة ، والتفت إلى الأشقياء ليسحتهم
بنظرة الإحتقار التقليدية . لم يدر أنه تشبه بالألهة ، ونسي المهمة الرسولية
الخالدة ، وغلب فيه طبع المخلوق الوضع الفاني ، تطبّع المخلوق السايوي
الخالد ، فتال الجزاء في الحان ، وهوى من قمة الجبل لمستحيل إلى حضيض
الأرض ، ليقع بين يدي الأشقياء .
بدأت دورة أخرى من دوائر البقاصص .

(١٢)

جاءوا به إلى «واو» .

هناك انتظرت مفاجأة أخرى .

فما أن مثل أمامه «آخوك» الفائز بلقب «إمستغ» حتى عرف ولده
القديم . إنه الذي حمله على ظهره وعبر به الصحاري كي يمثل في حضرة
الكاهن ويحفظ سيرة الولادة ويحتم على ذاكرته بالنسيان قبل أن يحين الوقت
ويعود إلى الصحراء من جديد . ويبدو أن ذاكرة هذا الإبن العجيب كانت
أقوى من النسيان ، فتمردت على القانون السري وتذكرت الأب . لقد اضطّر
أن يخبره بكل شيء في نظرة واحدة . ففهم ابن الحجر لغة الجذّ الحجري وإهار

جرجر الشوك واعتصم بالجبل . ركن إلى الصخور واحتنى بالعزلة .
استعان على الأذى بالنفى ، وتخلّص من الشوك بالصوم حصر العام حقاً ،
ولكنه أدرك أن هذه الخسارة هي الشرط الأول الذي يتكبد كمن شاء أن
يعرف خالقه ويكسب نفسه .

(٩)

ثم باشر المهمة ، وبدأ المسيرة السرية .

طاف الخلوات ، وتنقل بين روع القبائل . يجمع لأخبار الذين تحرّروا
من قمع البدن ، ويعود بهم إلى مغاور الظلمات ، كي يمثلوا أمام الكاهن
الخفي . هناك يخضعون للحساب . يعلمهم لغة الولادة كي يفهموا أخيراً أن
الكابوس سيبيق قدر الإنسان ما ظلّ يبحث عن الخلاص خارج نفسه .

(١٠)

.. إلى أن قدّر المقدّر وأرسه إلى جبل الجنون كي يعود بحفيد الأجيال
إلى أرض السكينة لتنتظر له الجبال أمر الولادة عندما يتبلّ للمسئلة بين يدي
الكاهن الأعظم .

في طريق العودة إعترضه الدرويش ، وحواره بلسان أهل السرّ . ولم يكن
صعباً عليه أن يخاطبه بنفس اللغة ويخبره بلسر بلسان أهل السرّ .

(١١)

ولكن المخلوقات الشقيّة التي لم تقنع يوماً بالهزيمة ، اعترضته في سفوح
القمم ، وطاردته عبر العراء المفروشة بحجارة أقمى من السنة السكاكين .

كان متعباً .

أنهكته الرحلة الأبدية ، وناء تحت عبء الأمانة الأزلية . ولكن شرائع

بالحمى قبل أن يُبلِّغ السلطان بـرجاء . ولكن -خوك المسكين لم يدرك أد
مغار لا ينزل السهل ، ويقف أمام الخفيد ، إلّا إذا أخذ معه الأمانة إلى
الجبل . لأن الأمانة هي القربان الوحيد الذي سيكفّر به أمغار عن إثّم
الكبرياء الذي صرعه . وثريعة الأسلاف هي التي تقول إن على أمغار أن
يصّخي بابنه إذا شاء أن يكفّر عن السيئة ، ويكسب رضوان الالهة .

لأنّه الوحيد ، في النهاية ، الذي يعلم أن في نجاته حياة الصحراء ، وفي
اختفائه زول القبيلة وفناء الأجيال .

ليامسون - موسكو

١٩٩١

١١ . تافاوت (*)

(*) تافاوت: لفيس (بلغة الطوارق).

تلقت الوصايا القديمة من رموز «تيفيناغ» التي دأبت الوالدة على نقشها فوق الوسائد. رصعت قصص البطولة وأساطير النبيل من ثدي الأم، ورأت الأسلاف في الأحلام، وفكت طلائع الوصايا في الرموز المطرزة بالخيط والإبرة على أقمشة الوسائد. كبرت، وسألت، فعرفت أن العلامات الغامضة المحطوبة على جلود السروج، ومستلزمات المهري كلها تراثم الأولين وكنوز الأسلاف. أوروها للأحفاد وتناقلتها الأجيال ليعرفوا المسيرة ويعدوا للثيعة نصوص الشريعة الصحراوية. . . . عرفت تافاوت أن الأم هي الحصن. الأصل. نجمة الحياة في كل القارة النائمة. ولم تكن تحتاج لأن تقرأ الأم على رأسها هذه التعويذة عندما حان الميعاد وجاء أوان الرشد لتجد نفسها محبوسة في خباء خاص، تتلقى أسرار الرحلة الجديدة على يدي عجوز حكيمة، تتسم بتراثم المجوس التي تعلمتها من سحرة «كانو» حتى تسهل الأمر وتفتح لها باب المعراج لتدخل الحياة. وكان عليها أن تتذكر إلى الأبد وصية العجوز التي استعارت لغة الصحراء في تلك الليلة وتكلمت بلسان الأسلاف عندما أنهت شعائرها السحرية: «اكتبي في قلبك، منذ اليوم، أن الأثني في الصحراء هي الحياة. في جوفك تتلقين البذرة وتحمين النسل من الانقراض. بفمك تتكلمين بالوصايا وتنطقين بالشرائع. بيدك تنقلين الرموز للأجيال ليتعلموا منها «تيفيناغ». تستطيعين، اليوم، أن تذهبي وتغني وتعشقي وتأخذي من

رجلك سرّ البقاء، تقيمة الصحراء.

- الرجل الأخضر كنز، لأن الصحراء خصّته بهذا اللون جزاء له على القناعة. الرجل الأخضر يعاف اللحم ولا يعرف الجشع. الرجل الأخضر قلبه في السماء ويعيش مع الملائكة لأنه لا يعرف غير العشب طعاماً. في قلب الرجل الأخضر ينام السرّ. لأنه محبوب الآلهة. فافهمي!

تترنّح بيناً ويساراً. ترفع عود الكحل إلى عينيها. تحفظ به علامة سرّية على الأهداب، وترسم إشارة أخرى على الحواجب. ثم تعود وتحنّح على قطعة الجلد لتستعير من مثلثات الإلهة «ثانيّة»، وأشكال الغزلان المسحورة، روح الوحي والسحر والنبوءات الوثنية.

تعتدل في جلستها وتستعين بالنبوءة على الدرس الحالد. درس الأم لوريتها الأني.

- هل تظنّين أن هـل الصحراء يحترقون الأكلول مراعاة لشرائح النبل ومجاراة للكبرياء؟

تمدّ يدها النحيمة وتهدهد التراب حتى تعزل الشر وتحتمي بالأرض من شيطان الكبرياء، ثم تعود إلى درس التلقين:

- اعلمي إذن أن هذه وصيّة أخرى ورثوها عن الأسلاف. الأسلاف وحدهم حقّ هم أن يعرفو سرّ الشّيع. فلنعوا كل أكلول، وسلطوا الشاعرات احسنات كي يرحمن بقصائد الأحباء كل الرجال الهممين ليصنعن لهم بقدرة الشعر؛ إساً من عار، ليتولّى القلب نقله إلى كل بقعة في الصحراء، فافهمي! لكن الدرس لا ينتهي عند هذا الحدّ. فلا بد أن تعرّج الأم الحكيمة على السماء، لتستطلع، وتحتمم الدرس بكلمة السماء:

- ومن غير القدماء يستطيع أن يعرف أن المخلوق إذا شيع نقل والتصق بالأرض؟ ومن غيرهم يستطيع أن يعرف أن من استسلم لتراب الأرض استعاده تراب الأرض. ولن يكتب له أن يرى النجوم أبداً؟

خرجت من خباء السرّ لتجد نفسها بين يدي الأم. أجلستها بجوارها في شمس الضّحى وصمّمت أن تتولّى الشوط الجديد. ترتق رموز «تيفينغ» على الوسائد والثياب وسروج الهاري لا لتعلّم أسرار الأجدية القديمة، ولكن كي تفهم لغة العشق. جاهرت بالدعوة في التعاليم التي تقول:

- لا ترفض المرأة وراء الرجل ليحميها من نوابث الدّهر وبهيا الأمان من غدر الزّمان، ولكن كي تقتني من صلبه الذرّية. فإذا أدركته ونادت المبتغى فقد فازت في الحياة وتلقّت سرّ الله في خلقه. فون هجرها بعد ذلك فلا يحقّ لها أن تحزن، لأن الرجل مخلوق بائس وضعيف لا يستطيع أن يحمي نفسه، فهو أخرج مخلوق للعزاء.

تبعد الأقمشة والثياب فيأتي دور الجلود. تستبدل بالإبرة عود الكحل وتبدأ في نقش الحروف الأولى في لمحة الوصايا. تواصل خطاب التلقين:

- . . . وقد باركت اختيارك لـ «أوداد»، ليس من باب الاستحابة للشرعية القليلة التي ترى في ابن العم أنسب ذكر للإبقاء على النسل، ولكن لأنه ولد أخضر. نعم. أخضر. هل تعرفين ماذا يعني أن يفوز الولد بيد أخضر؟

لم تعرف. من أين لها أن تعرف أسرار الكون الصحراوي أو تفهم معنى اللون الأخضر في بشرة الرجال وهي التي خرجت بالأمس من خباء المنعطف ووضعت على رأسها الطرحة الزرقاء علامة البلوغ، وأحسّت أن عود القدّ فيها هو الأخضر، والدّم الذي يتدفّق في شرايينها ويغذّي حلمتي تديها ليس ذو لون أزرق كما تدّعي عجائز القبيلة، ولكنه أيضاً أخضر؟

رفعت الأم رأسها إلى قرص الشمس، حدّقت في شعاع الشمس بعينين واستعنت طغى فيها البياض فبدت مثل ساحرات وكانوه عندما يبدآن في ممارسة الشعائر المجوسية الخاصة باستحضار الأموات أو الغيّاب أو الجنّ. أنهت لشعيرة المفاجئة فانبثقت الدموع. نطقت بالبشارة:

فأفهمي أن النساء لا تعترف بغير الجائعين ذوي البطون الخاوية الذين
يدبّون في الصحراء ورؤوسهم في السماء، لأنهم لا يطلبون في مسيرة الأرض
إلا واو النساء؟

هنا تجاسرت الوريثة وألقت بالسؤال لأول مرة:

- وهل يبحث «أوداد» أيضاً عن «واو»؟

ابتسمت الأم، في عينيها رقص وميض كالوجد. هزّت رأسها بالموافقة،
كأنها تبارك السؤال.

(٢)

عُتت له المواويل الصحراوية الشجنية وهي تطارد الجديان في الأودية
والمراعي. ساءلت ميراث الأسلاف على لحمة الجدران الصلصالية. خاطبت
الصوامع الجليلة المعلقة في سماء «تادارات»، بدأت مسيرة الطلب في أغنيات
العشق. حاورت الجنّ في أفواه المغاور لتلقى الجواب بلغة السرّ والخفاء.
تبدّوا لها في ثياب المهاجرين، وعلموها اللغة السحرية التي بدونها لن يُكتب
الفلاح نصيبه صحراوية في نيل مخلوق مخّلف من أغلال الأرض، وانتوى
البحث عن «واو» النساء.

ناشدت المعمرات الصحراويات اللاتي حفر الدهر على وجوههن الشرائع
ليجدن أنفسهن كاهنات، وعرفات، وساحرات:

- متى تفوز العذراء بقرين أدركه الطلب؟

فتجيب العجائز بلغة النبوءة:

- عندما يجد السبيل إلى واو؟

- ومتى يجد السبيل إلى واو؟

فتجيب الكاهنات، العرافات، الساحرات، بلسان العرافة والسحر
والكهنوت والقساوة:

- لن يجد إليها السبيل أبداً!

ولكن عذراء تحبش بالأمل، ويحقق قلبها بالعشق، لا تعترف بقساوة
المعمرات حتى لو كُنَّ كاهنات، وعرفات، وساحرات، فتحتكم إلى لغة
أخرى عرفها المهاجرون عندما يشتد بهم الظمّ ولكن لا يأسون، ولا يفقدون
الأمل:

- ورد في «أنبي» الضائع أن العاشق سينزل إلى الصحراء مهما طال به
المقام في الأعلى.

تبسم الكاهنات. يكشفن عن أفواه ظلماء خالية من الأسنان ليتفوهن
بنبوءة أقسى:

- سينزل إلى أسفل سافلين عندما تحين الساعة ويأتي وقت الزوال.

العذراء تغني موال الحياة:

- أنبي لا يخطيء. أنبي لا يكذب. أنبي يقول إن العاشق الباحث عن
واو في السماء يهرع إلى السهل ليحرق الأرض ويزرع قلب العذراء عندما
يحين الميعاد.

- من أدركه العشق المجهول لا ينزل ولا يتنازل، لأنه لا يريد أن يمتحن
العذراء ليكد للفناء. ولا يريد أن يقيم في السهل لينبي للخراب، ولا يريد أن
يستريح في حضيض الأرض ليحشو جوفه للعفن.

- هذه ليست لغة الإنس.

- من قال إن من قطع على نفسه الوعد لم ينسَ لغة الإنس؟

- هذه ليست لغة أنبي.

- أنبي يتكلّم لغة الأمس. ولغة الأمس أنبل من لغة اليوم، كما لغة اليوم
أنبل من لغة الغدا!

ناحت العذراء فاستجابت للنداء . ركضت نحو الأفق حيث كتب الفجر
وعداً غامضاً يقبس بكر، أخضر .

(٣)

أي قوّة في الصحراء تجرّو أن تتحدّى إرادة القدرة وتحالف تعاليم
الكاهنات الخرافيات؟ أي أنثى تتجاسر على الطمع وتسعى لنيل مخلوق
انسئخ عن لحمه الأرض وأودع قلبه في السماء؟ أي صبيّة تصرّ على أن تستولي
على الرّدان الجبلي الذي نذر نفسه للرّسالة وأوقف حياته طلباً للخلاص
وقرباناً لآوا؟

تفاوّت وحدها تجمّرات، وتجمّست، وأصرّت، لأن نداء الحياة في قلب
العذراء أقوى من الحياة ومن سلطان الزوال على بوابة آوا. وأغنية الميلاد
أشهى من نواح الخلود. ولم يكن مستحيلاً على السماء أن تبدع المعجزة وتحقق
الخلق، فتستجيب لتوسلات العاشقة الصحراوية، وتنزل بالمعشوق المكابر من
سياته في قسم «تادرات»، إلى سهل الحبّ والبعث والحياة.

تشاورت آلهة الصحراء في أمر العذراء وقبلت أن تتنازل عن النّذر قرباناً
للبكارة وتقديساً للحياة.

انشقّق القبس الصحراوي البكر بالبشارة، وفازت الأنثى الخالدة
بالمعشوق المستحيل.

(٤)

ولكن شرائع الأسلاف أقوى من غريزة حبّ البقاء، والحياة في الصحراء
أقدم رديف للحياة. بدأت شعائر الفرح، وحلّ الميعاد. غنّت الشاعرات
قصائد الضياع فركض الفرسان وصنعوا بالنهاري الضمير قصائد أخرى. نزل
السماء فقرأت في عيون المعجّزات الخرافيات الإشارة. امتثلت للأمر القديم
وسلمت نفسها للظلماء والخللاء. فُرت من وجه القرين امتثالاً لمشية الحياة.

١٨٨

استعدت عن المضارب. ابتلعها السكون. استردّها القمر من يد الظلمة
والجنّ وسلمها أمانة في عنق الطلح. هناك خرج لها حتّي آخر. تأملها طويلاً
قبل أن يخاطبها بلغة الإنس: «ما أنبل الحسناء إذا غنمت. ما أجمل الأنثى إذا
تحلّت بالحياة. الحياة هو الحياة».

ألقى عليها القبض، وساقها إلى خباء القرين.

(٥)

هناك، في جوف الحرم، عند أعتاب العرش الترابي الجليل، ترنّع القرين
في مسح الاقتران، وتلقاها بيد الوعد. سفحت دمع البكارة وضحت بالحياة
قرباناً لطفة البقاء. قايضت بشرائع السلف بذرة الحياة عملاً بمشيئة المعجّزات
الخرافيات اللاتي أجمعن بأن هفة الفوز لن تُكتَب للصبيّة الصحراوية ما لم تدفع
مقابلها دماً. والحكمة تقول إن الموت هو الهبة الوحيدة التي يتلقاها الإنسان دون
أن تطالبه الآلهة أن يدفع ثمناً مقابلها لها.

(٦)

لم يمكث القرين في السهل طويلاً.

استجاب للنداء ورحل إلى القمم طلباً للواحة السهاوية القديمة التي لم
تسجل لها ذاكرة الصحراء وجوداً في كتابها الخالد، تنسقط، لهذا السبب
نفسه، من حساب التاريخ، ومن حساب الزمان، ومن حساب الحياة، ومن
كل الحسابات، لأن المهاجرين الأبيدين تعلموا أن يسقطوا من الحساب كل ما
سقط من ذاكرة الأم الأولى، ليبقى النداء السهاوي معلقاً فوق رأس المهاجر
كالقدر. يتوئّب ملهوفاً لإحياء صلة انقطعت في زمان بقي خارج الذاكرة،
محاولاً أن يقلب النظام ويعدّل الخلل ويعيد خلق التأموس الأول، ظناً منه أن
الانسجام لن يتحقق إلّا في الواحة المجهولة. ولكن الطلب يستمر، والبحث
يتواصل، والقلب لا يتنازل ولا ينزل الأرض، والبدن لا يتحرر من الطين،

١٨٩

ولا يتلاشى في الضوء كي يصعد إلى السماء. يبقى النَّاء مَمْرَقاً بين النقيصين،
قلبه يَحْتَلِّي في الفضاء يطلب الخلاص، وكوز الطين يزحف على الأرض، مَمْرَعاً
الأنف في التراب.

وفي مكان ما، في برزخ بين السَّاء والصَّراء، تقف قسم «تادارات»،
تبتسم بحزن من عرف السر وأدرك أن العصفور الذي يحقق ويشملل في
القفص لن يعرف للخلاص طريقاً، ولن يفهم لغة الوعاء ما لم تتنازل السَّاء
بنفسها وتنزل للملاقة الصَّراء.

جبال تادارات هي التي ملأت قلب القرين بالأمل وأخبرته أن دخول «واو»
رهين بهذا اللقاء.

(٧)

عاد «أوداد» إلى سائته، وغاب طويلاً. استبطأنه الأم فجاءت إلى الخباء
غاضبة. ضربت عجيزتها بيديها ولقنتها تميمة تصنع من الكلمات حبل
المسد: «إذا لم تقدر الأنثى أن تحتفظ بقرينها بالمهبة والعقل فلن يرده لها إلا
هاتين..» ثم ضربت فخذتها بيديها مرة أخرى. ولكن تافاوت كانت تعلم
منذ البداية أن المخلوق الذي وضع قلبه في واو لن تفلح في استعادته برديفها
الحنساون. ابتسمت لأمها وتمحَّست الجنين الأخضر في بطنها.

(٨)

لم تعلّم الوليد رموز «تيفيناغ» وتعاليم الكتاب الضائع فقط، ولكنها آلت
على نفسها أن تنفخ فيه من روح الشرائع المقدسة التي تجعل من الذريرة مثلاً
للأجيال، وقالاً للديمومة، وبدناً أخضر يعافه غول الفناء، ويهرب من وجهه
شبح الزوال.

أرضته من حليب أبجديات احتلت فيها حروف اللُّغة المرتبة الأخيرة.
فالأنثى الصحراوية لا بد أن تحبل وليدها على الأعراف والشرائع والوصايا

أولاً حتى لو انتهت إلى قبائل الاتباع. لأن النَّبل والزهد والشجاعة وعشق
التيه مُثُل لم تكن يوماً حكرًا على قبائل النَّباء. وميراث الأبجديات المحصورة
على الصلْد خلقت لتتقاسمها الأجيال لتكون لها عقيدة للحياة قبل أن تصبح
قناعاً تتخذة قبائل الصحراء راية تمزيها عن بقية القبائل.

ولكن الغزو (هذا القدر المعلق فوق رأس القبيلة دوماً) لم يمهلها كي
تكمل المشوار وتربي في الوريث روح الوعد الأخضر. وكان عليها أن تفقده
إلى الأبد كي تستعيده مرة واحدة وإلى الأبد.

(٩)

.. لم تستعده بنفس الملامح، وبفس البدن، كما لم تتلقه من نفس
الملاك الجبلي الذي رحل يوماً بحثاً عن واو ولم يعد أبداً، كما لم تتلقه من
خفقة القلب المفاجئة، الغامضة، التي زلزلتها عقب خروج القرين، ولم تحي
من ورائها إلا الفجعة والنزيف، لأنها لم تدرك أنها تعلقت بشبح آخر أكثر
شفافية من الملاك، وأبعد مثلاً من واو، فآثر أن يفر مع الذئاب، على أن
يسلم قلبه لمخلوق أرضي حتى لو كان هذا المخلوق حسناء صحراوية تستطيع
وحدها أن تنفذ سلالة القبيلة من غول الزوال.

نعم..

جاء الوليد من العدم، فوجدت نفسها، ذات ليلة طلع فيها قمر حزين،
بمعصمها في حين يموي قطيع الذئاب في العراء الفسيح كأنه يبارك القرآن
المقدس.

موسكو - وادي الأجال (الصحراء الليبية) - ١٩٩١ م

الفهرس

٥	الرربة الحجرية
٧	صفحة من كتاب الصحراء
٤٩	العهن المسموم
٦٣	الجدب
٨١	الزعيم يتأمل الجمجمة
٨٧	أذكر أن في صياغة بني آوي
٩٧	العمود
١٠٥	سر التبر
١١٩	الشيخ
١٤٩	إله الحجر
١٦٩	أمغار
١٨١	تافاوت